14

سلسلة الفكر الرسالي

الإمام علي عليه السلام

في ميزان القِيَم

سماحة السيد مكي المأمون

مركز الفكر الرسالي
للدراسات والأبحاث

14

سلسلة الفكر الرسالي

الإمام علي عليه السلام
في ميزان القيم

سماحة السيد مكي المأمون

مركز الفكر الرسالي
للدراسات والأبحاث

محفوظة جميع الحقوق

هوية الكتاب:

* **الكتاب:** الإمام علي عليه السلام في ميزان القيم.
* **المؤلف:** سماحة السيد مكي المأمون.
* **الطبعة:** الأولى: ١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٤م.
* **الناشر:** مركز الفكر الرسالي للأبحاث والدراسات.
* **الإخراج الفني:** الكليم جرافك:

mohd.he@gmail.com
+973 36577227

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ الستينيات من القرن المنصرم والفكر الرسالي يواصل عطاءاته في ساحة الفكر، وقد ساهم هذا الفكر في طريق نهضة الأمة، من خلال آلياته ومصادره الإسلامية الأصيلة المتمثلة في كتاب الله العزيز، وسنة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، وآله الأطهار عليهم السلام، والعقل المسترشد بهديهم النيّر. وقد تبلور الفكر الرسالي في مدرسة رسالية راسخة في التجربة، واسعة في العطاء، للكثير من الجوانب التي اهتمت بها.

وتحوّلها إلى مدرسة فكرية رائدة يعني أنّها تناولت وعالجت العديد من جوانب الحياة التي تصوغ حياة الإنسان كنظام حياة، فكان لها العطاء في الجوانب الفكرية والسياسية والاجتماعية والعلمية المختلفة.

ولأنّنا نؤمن بأن الفكر الرسالي قد قدّم نظرياته وإسهاماته المعبّرة عن الروح النابضة والناهضة للإسلام ـ الذي أراده الله أن

يقـود الحيـاة – فإنّنـا نقوم في هذه السلسـلة من الإصدارات (**سلسـلة الفكـر الرسـالي**)، باسـتظهار بعـض إسـهامات الفكـر الرسـالي وقراءاتـه، مـن خلال إسـهامات مداد رجالاتـه، كبعث جديـد، أملاً في أن يأخـذ الفكر الرسـالي موقعـه الريادي في حياة الأمّة، واكتشـاف جوانبـه المشرقة.

سلسلة الفكر الرسالي

هذه الدراسة

إنّ معرفة أمير المؤمنين عليه السلام هي أساس لمعرفة الدين وسلوك نهج الدين، وبذلك تصبح هذه المعرفة هي مفترق طرق الجدل حول معرفة الدين وإصابة الحق فيه، فمن آمن بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كإمام حق، فقد ميّز نفسه عن سائر الفرق الإسلامية التي تخلّفت عنه، وبذلك يكون الإمام علي عليه السلام هو انتماء لشيعته الذي كان امتداداً صادقاً لرسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أمّا الوصول إلى تلك المعرفة وذلك الإيمان، فإنّ له مداخل متعدّدة، فتارة يلج الباحث إلى أحقية الإمام علي عليه السلام من باب مظاهر الإعجاز في شخصيته وفي معرفته، فيكون شاهداً على الرسالة ومعجزة من معجزات النبّوة، وهو طريق التأمّل والملاحظة، وتارة يدخل من باب شهادة النبوة على تتويجه بتاج الولاية على المؤمنين، وهو طريق الجدل الكلامي، وتارة يدخل الباحث من مدخل قياس شخصية الإمام علي عليه السلام بالحق، وهو مدخل يتبع الموازين العقلية التي أودعها الله تعالى في فطرة الإنسان.

والباحث سماحة السيد مكي المأمون، من علماء السودان، في كتابه (**الإمام علي عليه السلام في ميزان القيم**)، يقدّم لنا بحثاً جليلاً، وهو مفتاح للولوج إلى الإيمان بشخصية أمير المؤمنين عليه السلام، من خلال باب مقياس القيم، تلك القيم الإنسانية والحضارية المودعة في فطرة الإنسان، والتي صدّق بها العقل، وشيّدها الدين.

هذه الدائرة الواسعة في منهج معرفة الحقائق، التي تستوعب مساحة واسعة من البشر، قد عبّر عنها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، حينما سأله الحارث بن حوط الليثي عن بعض الشخصيات المناوئة في عصره، قال: «**يَا حَارِثُ، إِنَّكَ إِنْ نَظَرْتَ تَحْتَكَ ولَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ، جُزْتَ عَنِ الْحَقِّ، إِنَّ الْحَقَّ والْبَاطِلَ لَا يُعْرَفَانِ بِالنَّاسِ، وَلَكِنْ اعْرِفِ الْحَقَ بِاتِّبَاعِ مَنِ اتَّبَعَهُ، وَالْبَاطِلَ بِاجْتِنَابِ مَنِ اجْتَنَبَهُ**»[1].

فإن الإمام علي عليه السلام الذي كان على يقين بحقّه، وصدقية منهجه، إلا أنه يحيل الناس إلى ميزان القيم الذي يُعرف به قيمة معادن الرجال، وهذه الوثوقية نفسها، تعبّر عن علو نفس لا تطلب الدنيا لنفسها، وإنما تطلب أهل الدنيا ليهتدوا إلى الحق.

(١) أمالي الطوسي، ص١٣٤.

والباحث القدير في هذا الكتاب، عرض أربع قيم عليا، يقود إليها العقل، وهي الإيمان بالتوحيد، والعدل الذي ينصف الإنسان، والحب وتجاوز الذات، والحياة في تطلعها نحو الكمال، ثم استعرض حياة أمير المؤمنين عليه السلام بميزان هذه القيم، لتظهر شخصية الإمام عليه السلام أمام الباحث المنصف، بصفاء دون كدر، وهو بالتبع يظهر مثالب المناوئين، لما يتبيّن من مواقفهم من هذه القيم.

مقدمة

عليٌّ عليه السلام وليد الكعبة وربيب الرسول صلى الله عليه وآله ومعجزته؛ ويعتبر بالمقاييس الدنيوية ضحية كماله وإيمانه بالمبادئ، ولكنّ هذا الكمال هو الذي عبّد له الطريق ليُقاسم النار فيقول لها: هذا لي وهذا لك، ومكّنه من أن يذود عن الحوض من غرّته الحياة الدنيا وراقه زبرجها فأنكر ولايته، كما استطاع بإيمانه بمبادئه وحرصه عليها أن يملك قلوب المؤمنين فلا تمجّ آذانهم سماع فضائله، وجعل قلوبهم تنتفض عند ذكره، وتتلوى حسرة إنْ حال الزمان بينها وبين أن تآزره في معاركه ضد قوى الشر والطغيان وعبدة الهوى والشيطان، وقد نظر أمير المؤمنين إليها ببصيرته النافذة فعزاها بقوله الشهير :«**لقد شهد موقفنا هذا رجال في أصلاب الرجال، سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان**»[1]،وهم الذين هواهم مع هوى أمير المؤمنين. وما هواه إلّا الحق، فهو كما قال الرسول صلى الله عليه وآله «...**مع الحق والحق معه يدور معه حيث ما دار**»[2].

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٤٤ شرح الشيخ محمد عبده.

(٢) راجع مصادر الحديث في كتاب الغدير للعلامة الأميني ج٣ من ص ١٧٦ إلى ص ١٧٨.

وقد يستعجب المرء أن يُصدر الرسول حكماً مطلقاً على رجل سيعيش بعده ثلاثين عاماً يخوض فيها صراعات مريرة، ولكنّها المعجزة النبوية التي اخترقت حجب الغيب ووضعت للمسلمين ميزاناً وفاروقاً، ومصباحاً يضيء لهم الطريق ويهديهم سواء السبيل، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

فصفات عليٍّ عليه السلام هي عين صفات القرآن الكريم، ألم يقل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

عليٌّ مع القرآن والقرآن مع علي، وهو القرآن الناطق؟

فعندما ترتوي الحروف بلغة الصمت حتى الثمالة، وحين تكبّل الألفاظ على جدار المصاحف بأغلال الدهشة والإنكار للواقع، وعندما تعمى العيون والأبصار عن رؤية معجزة القرآن؛ يمتد عليٌّ عليه السلام شاهقاً عصياً على التعامي والإغفال، نموذجاً ربانياً ومعجزة خالدة ومصداقاً للقرآن وترجماناً للوحي، فهو ربيب الرسول؛ كفله صغيراً يمضغ اللقمة ويلقمها له فارداً عليه جناح الرحمة النبوية، مظلّلاً عليه بخلقه العظيم، فعشق علي ابن عمّه عشقاً لا تحدّه الكلمات، وآمن به إيماناً يهزأ من كلّ المخاطر

والأهوال، وأيقن برسالته يقيناً جعله يلقي بنفسه إلى الموت طائعاً مختاراً، مكدوداً في ذات الله، سيداً من أولياء الله، قريباً من رسول الله ﷺ، بات في فراش الرسول ﷺ من أجل أن ينجو من الكفار مهاجراً بدعوته، وعندما يحمرّ البأس كان عليٌّ فارس الميدان وفتى الفتيان، وعندما يولّي الأصحاب لا يلوون على شيء والرسول يدعوهم في أخراهم كان عليٌّ ينادي: لولا خوفي أن يصل لرسول الله ﷺ شيء لكنتم أولى من المشركين بسيفي، حتى نادى جبريل بين السماء والأرض: «**لا فتى إلّا علي ولا سيف إلّا ذو الفقار**».

عليٌّ عليه السلام لا يمكن أن تحمل وصفه الألفاظ، فالمعاني التي يجسّدها تفيض من جانبي الألفاظ كفيضان الماء على ضفتي نهر فتي في موسم فيضانه، وكما تحمل تلك المياه الطمي لِيَهِب الأرض الخصوبة والنماء، فمعاني علي تَهِب العالم الحياة الروحية، وترفده بكلّ ما يحتاجه من خصوبة، وتجعله جاهزاً للإثمار العقلي والفكري.

هذا غيض من فيض علي عليه السلام...وهو..(محنة المتكلمين إذا أوفوه حقه غلوا، وإن بخسوه أساءوا)، وهو كما قال المتنبي:

وتركـتُ مدحي للـوصي تعمّداً إذ كان نــوراً مســتطيلاً شــاملا

وإذا اســتطال الشيء قام بنفســهِ وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا

ولكن كيف أصبح عليٌّ عليه السلام كلّ ذلك؟

وعلى أيّ مدرج درج ليسمو ذلك السمو كلّه؟ وكيف يمكن لنا نحن المسلمين أن نجتاز مرحلة المحبة لعليٍّ عليه السلام لندخل في مرحلة الاقتداء والاتباع له والسير على خطاه؟

الطريق لكلّ ذلك تترسم عبر وعي حقيقة ديننا وقيمه؛ لأنّ هذه القيم هي التي سَمَت بعليٍّ عليه السلام.

فهذا الكتاب محاولةٌ لاستكشاف هذه القيم، ثمّ عرض حياة عليٍّ عليه السلام على ضوئها؛ لمعرفة تأثير كلّ مفردة من مفردات هذه القيم في حياته عليه السلام.

تمهيد عن القيم

١/ موقع القيم في الفكر الإسلامي[١]:

إنّ القضية الأساسية التي أفرزت لنا تلك العقليات المشوّهة، التي صبغت ثقافة الأمّة بزخم التشويه والتخريب ففقدت موازينها، هي قضية القيم، فعندما يختل هذا الميزان تنعدم الرؤية الصحيحة، وبالتالي نفقد القدرة على التمييز، ومن ثمّ الحكم على الأمور، ففَهْم الإسلام بعيداً عن القيم في تجلّياتها الواقعية كان سبباً في خلط المعايير، وأدّى إلى فهم مغاير للدين الذي جاء مستأدياً لميثاق الفطرة، وموافقاً لما يدل عليه العقل في القضايا الأخلاقية، ولا خلاف بيننا في أنّ الإسلام أعاد رسم تلك الخريطة الأخلاقية، ولكنّه لم يعد رسمها بعيداً عن ما استودعه الله في فطرة الإنسان،

---

(١) في هذا البحث (الإمام **علّي** عليه السلام **في ميزان القيم**) استعنّا بمجموعة من الكتب سهّلت علينا البحث هي: أخلاق أمير المؤمنين للسيد هادي المدرّسي، علي إمام المتقين لعبد الرحمن الشرقاوي (مجلّدان)، موسوعة الإمام علي عليه السلام للريشهري (١٢ مجلداً)، الإمام علي صوت العدالة الإنسانية لجورج جرداق (٥ مجلّدات).

ودلّ عليه العقل في تجلّياته، بمعنى أنّه لم يقلب الصورة رأساً على عقب؛ كما حاول أن يصوّر ذلك علماء السلطان، ولكنّه أضاء بعض جوانبها، وفكّ رموزها، وأعاد ترتيبها؛ في شكل يظهر بجلاء من خلال القرآن والسنة الشريفة.

ولكن معضلة بعض العلماء كانت في سيرة بعض الصحابة، وهو الفخ الذي نصبه أصحاب الأهواء لثقافة الإسلام لتقع في أسر التضاد مع الفطرة والعقل، وهناك بلا شك مغالطة واضحة عمل بعض علماء الدين والمؤرخون على تكريسها؛ تتمثّل في علاقة الدين الإسلامي بالقيم، ولهذه المغالطة أهدافها التي يجب أن لا تخفى علينا، فعند قياس الشخصيات الإسلامية ذات الرمزية الدينية، تنجح هذه المغالطة في التعمية والتمويه على هذه الشخصيات، وتحرص على عدم دخولها إلى مفرزة القيم، بحجّة أنّ سلوكها ينسجم مع قيم الإسلام، وهو ادّعاء سهل المؤونة، وقابل للتمشية والتبرير من خلال وضع الروايات أو تحريف الآيات وتأويلها، كلّ ذلك حرصاً على هذه الشخصيات من أن تمس أو تخدش، لمجرّد أنّها تولّت السلطة السياسية لفترة من الزمن، ولا يتمّ لهم ذلك إلّا بالفصل التام بين قيم العقل وما ينسبونه من قيم للإسلام.

لذلك لزم تحرير هذه النقطة قبل الدخول في ميزان القيم، وحتى يتضح ما المقصود من ميزان القيم، وهذا مبحث وَعِر ومتشعّب وعميق وشديد الأهمية، ويستحق أن يجد عناية خاصّة من الباحثين؛ لارتباطه بالأخلاق التي ما جاء الرسول إلّا ليتمّم مكارمها، كما أنّه في جانب منه يمثّل موضوعاً علمياً لبعض فروع العلم الحديثة؛ مثل علم النفس.

فمن هنا يكون البحث فيه ذو أهمية كبيرة لتقويم سلوك الأفراد، بل قد يكون وسيلة لإقامة بناء أو تصوّر متكامل يمكن من خلاله الإجابة على العديد من الأسئلة؛ مثل ما هي القيم، وكيف تنتظم، وهل تختلف باختلاف المتغيرات وكيف تحدد القيم اختيار الفرد وقدراته؟

٢/ ماذا نعني بالقيم؟

القيمة هي إيمان الإنسان بأهداف مقدّسة (أو مشروعة) تعطيه معايير للحكم على الأشياء والأفعال بالحسن والقبح أو بالأمر والنهي.

فالقيم هي التي توجّه سلوك الأفراد وأحكامهم واتجاهاتهم فيما يتصل بما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه من أشكال السلوك.

وتحديدها وحكمها على السلوك فرع تحديدها للغايات المثلى في الحياة، وهي بذلك عبارة عن اعتقاد راسخ ترتكز عليه حياة الإنسان، وتباين المعتقد بأنّها الأقرب للسلوك إذ إنّها تشكل الخلفية المباشرة له وهي التي تصنع الدافع والحافز للسلوك البشري.[1]

٣/ مصدر القيم:

تباينت الآراء وتعددت النظريات في مصدر القيم، والحق أنّ مصدرها واحد وهو العقل، والاختلاف فيها نتج عن وجود محدّدات خارجية لبروز القيمة في السلوك البشري، بمعنى وجود بعض الموانع التي قد تعوق فاعليتها التأثيرية، وتؤدّي إلي تأرجحها بين الضعف والقوّة.

أضف لذلك أّن وجود نوعين من القيم ربما كان أحد أسباب الاختلاف نتيجة الخلط بينهما؛ حيث تنقسم القيم إلى مقدّسة ومشروعة؛ تبعاً لانقسام أهداف الإنسان. فللإنسان أهداف مصدرها حاجته الطبيعية التي يفرضها عليه وجوده المادّي، وتتمثل في الملبس، والمأكل، والمشرب، والجنس، وكلّ ما يحفظ

(١) استفدنا في هذا المبحث من موسوعة سماحة المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي (التشريع الإسلامي..مناهجه ومقاصده)، وبالخصوص الجزء الثالث الذي احتوى على مباحث مقارنة عن القيم.

حياته؛ وهي بذلك تختلف من فرد إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر، وهذه تمثّل مصدراً للقيم المشروعة.

وقولنا مشروعة يعني أنّ هنالك قيماً حاكمة عليها هي التي تسبغ عليها الشرعية، وهي القيم المقدسة، ومصدرها العقل ويشترك فيها جميع البشر؛ يتواصلون عبرها، ويتحاكمون إليها، فهي قاعدتهم المشتركة والحصن الذي يحميهم من اعتداء بعضهم على بعض.

والإنسان يحكم على أهدافه المشروعة النابعة من حاجته وفق قيمه المقدسة، فتصبح خيراً أو شراً وفقاً لمعاييره القيمية التي اكتسبها من خلال وعيه لحقائق الأشياء من حوله.

وهنا قد يبرز سؤال وهو لماذا الاختلاف بين المجتمعات حول القيم مع اتحاد مصدرها؟ وما هو دور الرسالات، أليس دورها إيجاد قيم جديدة للناس تدعوهم من خلالها إلى تقويم سلوكهم؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، أفليس الإسلام خاتم الرسالات ومصطفى الديانات، فكيف تنكرون على من ادّعى أنّ هناك قيماً إسلامية وأراد محاكمة رموزه إليها؟

والإجابة على هذه الأسئلة تتم عبر مراحل، في المرحلة الأولى

منها يجب الإجابة بتوضيح السر في اختلاف القيم بين المجتمعات المختلفة.

٤/ أسباب الاختلاف حول القيم:

عندما قلنا إنّ العقل مصدر القيم المقدسة كان علينا أن نحدّد ما المقصود بالعقل.

فالعقل هو ذلك النور الذي يتحسّسه كلٌّ منّا داخله، ويعرف به الأشياء من حوله، ويحكم به على الأفعال بـ ينبغي ولا ينبغي، ويفرّق به بين الحسن والقبيح، وتنتظم عليه أسس حياة الإنسان، ويرتبط بكلّ ما يفرق بين الإنسان وما حوله من كائنات حية، وإليه ترجع كلّ محاولات الإنسان للسمو وتجاوز الذات، فنحن نعلم أنّ وجودنا المادي وغرائزنا ليست هي التي تدعونا إلى خدمة الآخرين والإحسان إليهم، وما أطلق عليه البعض لفظ الإضفاء -والمعني به اللمسة التي يضفيها الإنسان على حاجاته البيولوجية العادية التي تشاركه فيها بعض الحيوانات- إنما أراد ما سقناه هنا؛ من تدخّل القيم المقدسة (قيم العقل) وحكمها على القيم المشروعة.

وهذا العقل قد يخبو نوره بتغطية بعض الحجب؛ فهو يغيب في النوم والغضب والجنون والطفولة، وقد يختفي دوره تحت وطأة

الشهوات والأهواء؛ وهذا يؤثّر في تشخيصه لمصاديق القيم.

وقد يتدخّل في تحريف القيم عدمُ وعي أصلها ومنبعها؛ ممّا يتسبب في استبدالها بقيم مضادة؛ هي قيم الذات التي تفرزها الغرائز الطبيعية للإنسان، فتتحوّل من محكومة بقيم العقل إلى حاكمة عليها.

والدليل على هذا أنّنا نجد هذه القيم المقدسة تتأرجّح بين شدٍّ وجذبٍ في المجتمعات المختلفة، ولأنّها ترتبط بالعقل وبالتالي بالقدرة المعرفية للفرد، فإنّها تختلف وضوحاً باختلاف وعي الأفراد، وذلك لأنّ القيم تنطوي على عملية انتقاء واختيار لموضوع معين، وإعطائه أهمية أو قيمة عن موضوع آخر، بمعنى الحكم عليه كما أسلفنا، وهذه عبارة عن عملية إدراكية انتقائية، تتكئ على العلم الذي هو صِنْو العقل.

والعلم يحرز عند تحكيم العقل وتسليطه على القضايا والموضوعات الخارجية، من هنا نعلم أنّ الاختلاف ليس مصدره العقل بما هو عقل، ولكنه ناتج من تحكيمه من جهة، ومن تزكيته من الجهة الأخرى.

فتتلخّص مشكلة القيم في غياب الدين والوحي في:

١/ قلّة وعيها وإدراكها ووعي مصدرها الأساسي.

٢/ تفسيرها على مواضيعها الخارجية وتطبيقاتها.

٣/ الرقابة على التطبيق.

وعلى ضوء ذلك يمكن الإجابة على ما تقوم به الديانات السماوية في مجال القيم، فبالنسبة للإسلام لا يمكن إنكار بعض القيم السائدة قبله التي أقرّها؛ لأنّ مصدرها العقل، مثل إكرام الضيف والشجاعة وغيرها من مفردات القيم؛ التي تعتبر تعبيرات وشُعَب لقيم أخرى تتضمّن تجاوز الذات والتسامي عليها، ولكن هذه القيم رغم وجودها تتعرّض بلا شك لخطر الانقراض تحت معاول الهوى والشهوات، وانعدام الرقيب الذي يضمن العمل على وفقها.

بل إنّ وعي هذه القيم لا يشمل جميع أفراد المجتمع، والرقابة الإجتماعية قد لا تكون بالقوّة اللازمة؛ لعدم رسوخ البنية الاجتماعية، فتتغلّب الدوافع المادية في قطاعات من المجتمع لتفرز قيماً ذاتية تفسر سلوك تلك القطاعات والأحكام السائدة بينها؛ مثل ربط النساء بالعار مثلاً الذي يتسبب في ظاهرة الوئد الجاهلي لهن.

٥/ الدور الذي لعبه الإسلام في إطار ارتقاء القيم:

على ضوء ما ذكرنا يمكن أن يتضح لنا الدور الذي لعبه الإسلام، فبمجيء الوحي الإلهي وبزوغ فجر النبوة، ارتقى نسق القيم، وترتبت المنظومة القيمية وفق هدى العقل المزكّى بنور الوحي؛ وذلك لأنّ الإسلام قام بتصفية العقل منبع القيم الحقّة، وبالتالي فتح الطريق لإعادة ترتيبها وفق تلك العلاقة بين الوحي والعقل، التي شكلت آلية قوية كشفت عن قمّة القيم وأصلها الذي تتفرع منه سائر القيم الأخرى، بل تتعدى هذه الآلية ذلك الكشف إلى الحفاظ على القيم والرقابة على السلوك بربطه بها.

فالوحي يوقظ العقل بتذكيره وإزالة حجب الشهوات عنه، فيعي الحقائق، ومن ثمّ يدفع الإنسان إلى العمل على وفقها.

فوجود القيم في ضمير الإنسان ليس يعني بالضرورة انعكاسها على سلوكه، لأنّها تحتاج إلى تفسير، والعقل المزكّى هو الذي يقوم بتفسيرها، ولولاه قد يخطئ الإنسان في تطبيق القيم على غير أهلها.

فمثلاً العدالة هدف للإنسان، ولكن أنّى لبشر تكتنف قلبه حجب الشهوات وتراكمات الحقد والعصبيات، أنّى له معرفة تطبيقات العدالة معرفة صحيحة؟

فمعالجة الدين لمشكلة القيم؛ من خلال محاربته لشهوات النفس، وترقيقه لحجاب الذات، ويتضح ذلك أكثر عندما نبيّن كيفية ترتيب الإسلام للقيم.

٦/ الإسلام وترتيب القيم:

ذكرنا أنّ القيم ترتبط بأهداف الإنسان، فإذا كانت أهداف الإنسان سامية متجاوزة لذاته تجلّت فيه قيم سامية، وحكمت سلوكه العام في هذه الحياة.

أمّا أهداف الإنسان فتتحدّد بوعيه للحقائق من حوله، فمن لا يعلم الهدف من وجوده في هذه الدنيا[1]، لا يستطيع أن يحدّد أهدافه فيها، وبالتالي تتحكّم غرائزه الطبيعية في رسم أهدافه وغاياته، وفي هذه الحالة لن تتجاوز أهدافه ذاته.

(١) ١/ يقول آية الله السيد هادي المدرسي في هذا الإطار:
وكقضية موضوعية هل يمكن أن تكون الأهواء والرغبات أهدافاً للحياة؟ إنّ الهدف لا بدّ أن يكون موجوداً قبل الإنسان، فكيف يكون ما هو نتاج وجود الإنسان هدفاً له؟ إنّ هدف الرماية يحدّد قبل الرماية، ولا يمكن أن تكون الثغرة التي تحدثها الرماية -بعد إطلاقها- هدفاً للرماية ذاتها! وهكذا الأمر بالنسبة إلى الأمور الأخرى التي ظنّها بعض السذّج أهدافاً، في الوقت الذي لم تكن إلّا وسائل. إنّ الحياة أعزّ من أن يكون هدفها: المصلحة، أو اللذة، أو حتى استمرار النسل وزيادة الإنتاج، ويهدرها الذين لا يعرفون هذه الحقيقة.إنّ الله خلق الحياة من أجلنا، فلمن خلقنا؟«خلقتُ الأشياء لأجلك»«وخلقتك لأجلي».
فلابد أن يخضع الإنسان لمن خُلق له في كلّ خطوة من خطواته، وكلّ نأمة من نأماته. فهو لم يخلق للعبث واللّذة -وإن كانت اللذة غير محرّمة إذا حافظ الإنسان في استعمالها على منهاج الله- وإنّما خُلق لله.

وتدخّل الوحي والدين في التذكير بالعقل يوفّر للإنسان الفرصة لإدراك الحقائق من حوله، ومعرفة سر وجوده، وبالتالي تتضح أهدافه في هذه الدنيا، وتترتب على أساس ذلك القيم المحركة لحياته حسب أهميتها، التي هي بدورها محكومة بقرب القيمة وبعدها من الهدف الأساسي المحوري، والهدف الأساسي يمثّل القيمة الأساسية التي تكتسب من خلالها القيم الأخرى قدسيّتها وشرعيّتها.

٧/ كيف تترتب القيم على ضوء العقل والدين؟

التوحيـــد:

أوّل ما يكشفه العقل بعد تزكيته هو مخلوقية الإنسان وتابعيته، فينكشف للعقل الضعف الإنساني فيبحث عن ما يستمد منه القوّة ويرسم له الأهداف، وعن ما يكشف له عن سر ما يكتنف جوانحه من شوق للتطهّر وتطلّع للسمو بالنفس والتكامل مع الغير، وعن سر الرحمة والشوق للعدل الذي يملأ ضميره؛ فيبدأ يبحث عن منبع هذا الفيض، وعن تلك القدرة والقوّة التي يعلم أنّ وجوده واستمراره مستمد من فيضها. عند ذلك يعي ويتذكر

مواثيق الفطرة، وتتجلّى المعرفة التي غرسها الربّ سبحانه وتعالى في ضميره؛ فيعي حقيقة التوحيد، وتتجلّى له أسماء الله الحسنى كمرشد ودليل، ومنها يفيض على قلبه ينبوع القيم، وعلى ذلك يبدأ الإنسان ترسيم قيمه بوعي حقيقة مخلوقيته؛ التي تستلزم رسم أهدافه بناء على وحي خالقه.

فكلّ القيم النبيلة التي يمكن أن تسيّر حياة الإنسان وتحكمها، ترجع بتدقيقنا فيها إلى مفردة واحدة؛ هي توحيد الله.

فمعرفة الله تورث مخافته، وإلى مخافة الله يمكن أن ترجع كلّ الفضائل التي ترفع الإنسان وترتقي به في درجات الكمال، ومن التوحيد تنبع قيمة الاستقلال والحرية، والاستقلال معه الشعور بالعزة والكرامة.

فمعرفة الله وتوحيده تعني الخروج من أسر الشهوات والأهواء، والاستقلال تجاه كلّ قوّة سلطوية من خارج ذات الإنسان؛ كقوّة السلاح أو المال أو الفكر الباطل، أو من داخله؛ مثل الشهوات والأهواء.

ومن الحرية والكرامة والعزة ينتج النشاط، فينشط الإنسان عند إحساسه بحريته وكرامته، فيطوّر نفسه لينتج ويعمر الأرض.

والتوحيد قد يفهم بأنّه الفكرة النظرية المغروسة في فطرة الإنسان، والجانب العملي منه يعبر عنه بالإيمان وهو وعي الحقائق والعمل وفقها، وبذلك يتكوّن من مفردتين أساسيتين مترابطتين؛ الأولى وعي الحقائق -وقد تعبّر عنه الأحاديث بالعقل-، والثانية وهي العمل وفق هدى الحقائق -ويعبّر عنها بالتقوى-.

والإيمان يشملهما معاً، وهو عمل وفق وعي، كما هو تعبير عن مجموعة من الحقائق أهمها التسليم لله؛ الذي يمثّل الانسجام بين المؤمن وبين الحق.

على هذا يمكن القول إنّ القيمة الأساسية وأمّ القيم -كما يوضحها الإسلام- هي الإيمان.

وهذا لا ينافي قولنا سابقاً إنّها التوحيد؛ لأنّ الإيمان هو الصلة بين العبد وخالقه، وهو الجزء العملي النابع من حقيقة التوحيد، ومن الإيمان قيم العدل، والحب، والحياة، وكلّ واحدة من هذه الثلاثة تفيض منها مجموعة من القيم.

العـــدل:

ومعنـاه أن تقسـط للنـاس حقوقهـم، ولا تبخس منها شـيئاً،

وإعطاء كلّ جانب من الحياة حقه، وذلك كلّه انطلاقاً من قيمة الإيمان.

فما دام الإنسان مؤمناً بالله سبحانه وبما خلق، وبكلّ حق في العالم، فهو معترف بحق الناس وحرمتهم، وملتزم سلفاً بالوفاء بهذا الحق، كما هو معترف بحق جسده وروحه وعقله، وقد اعتبرها القرآن هدف الرسالات؛ حيث قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[1]، وقال عن العدالة حتى مع الأعداء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾[2].

الحـــب:

هو التطلع لتجاوز النفس، وقد فطرت النفس البشرية على أنّ رسالتها الأولى تتمثّل في التكامل بها إلى حيث نفي ذاتها لمصلحة ذات أخرى، أو لا أقل بالتحوّل من حالها إلى حال أسمى.

وهذا مصدر حب الله سبحانه، والانجذاب إلى جماله وكماله،

(١) سورة الحديد، الآية: (٢٥).
(٢) سورة المائدة، الآية: (٨).

والبحث عن أي وسيلة للتقرب إليه زلفى، وقد لخّص الحديث الشريف الدين في الحب: «**وهل الدِّينُ إلّا الحب**».

ومن مصاديق الحب التسليم للرسول الأكرم ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله**﴾[1] ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[2] ﴿**قَالَ اللهُ جَلَّ فِي عُلاه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله**﴾[3].

الحيـــاة:

الإيمان بالله سبحانه وبأسمائه الحسنى يثير في الإنسان تطلعه الفطري نحو الكمال، والتخلّق بصفات الرب، والتوسّل بأسمائه إليه، وبالتالي يزيده اندفاعاً نحو التسامي.

فحب الله وحب عباده يحفّز الإنسان نحو العطاء أكثر فأكثر، كما أنّ العدالة تفتح الطريق أمامه للتحرّك بفاعلية كبيرة، وقد جاء في القرآن الكريم ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ**﴾[4]، واعتبر الجهاد سبيلاً للهداية فقال ربّنا سبحانه ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[5].

(١) سورة آل عمران، الآية: (٣١).
(٢) سورة المائدة، الآية: (٥٤).
(٣) سورة البقرة، الآية: (١٦٥).
(٤) سورة الحج، الآية: (٧٨).
(٥) سورة العنكبوت، الآية: (٦٩).

القيم في حياة الإمام علي عليه السلام

تمهيد

هلمّ الآن نحاول أن نستعرض حياة الإمام علي عليه السلام من خلال هذه القيم الأربعة ومصاديقها، وننقّب عن دورها في مسيرة حياته، وذلك من خلال ما حفظه لنا التاريخ من سيرته، ومن كلماته وحكمه المبثوثة.

(أ) الإيمان والتقوى

سبق أن بيّنا ما نقصده من الإيمان، وأنّه وعي الحقائق والعمل على هديها، وقلنا إنّ الأخيرة هي ما سُمّيت في مصادر الشريعة الإسلامية من كتاب وسنة بالتقوى، وحتى نتبين آفاق التقوى وأبعادها وآثارها على حياة الفرد، وكيف يمكن أن تتجلّى في حياة المؤمن، تجدنا مضطرين أن نستعين ببعض كلمات الإمام علي عليه السلام نفسه، وليس في هذا نوع من الدور الفلسفي؛ لأنّ العقل يستقل بالمقارنة والربط بين هذه الكلمات، والبصائر المبثوثة عن التقوى في القرآن الكريم، وإذا خالفت الكتاب فإنّها زخرف من القول، وفي إمكانك أن تضرب بها عرض الجدار.

ونحن لا نطالب القارئ أن يحاكم الإمام -إن كان يحق لنا محاكمته- من خلال كلماته، وإن كانت لعمري تخرج من قلب لم يشارك الله فيه شيء من خلقه، ولكن ليتعقّل من خلالها معنى التقوى، ومن ثمّ يأتي إلى تفسير مواقف الإمام عليه السلام من خلال فهمه لهذه القيمة.

فقد اختلطت على البعض المقاييس التي يمكن أن يقاس بها الإنسان في هذه الحياة، وانتكست عنده منظومة القيم، فالسير العكسي في اتجاه بداية الطريق سيرٌ شاقٌّ وعسير، ويحتاج لجهد وعزيمة، ولكن الإنسان سيكتسب من خلال هذه العودة المباركة الوعي شيئاً فشيئاً.

ومن أشهر ما أُثر عنه في التقوى ذلك الوصف الشهير الذي وصف به المتقين، نزولاً عند رغبة أحد أصحابه، فقد رُوِيَ أَنَّ صَاحِباً لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يُقالُ لَهُ هَمَّامٌ كانَ رَجُلاً عابداً، فَقالَ لَهُ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، صِفْ لِيَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، فَتَثَاقَلَ عليه السلام عَنْ جَوَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**يا هَمَّامُ اتَّقِ اللهَ وَأَحْسِنْ ﴿فَإِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾**».

فَلَمْ يَقْنَعْ هَمَّامٌ بِذلِكَ الْقَوْلِ حَتَّى عَزَمَ عَلَيْهِ.

فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم ثُمَّ قَالَ:

«**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعالَى خَلَقَ الْخَلْقَ حِينَ خَلَقَهُمْ غَنِيّا عَنْ طاعَتِهِمْ، آمِنا مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لِأَنَّهُ لا تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصاهُ، وَلا تَنْفَعُهُ طاعَةُ مَنْ أَطاعَهُ، فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيا مَواضِعَهُمْ.**

فَالْمُتَّقُونَ فِيها هُمْ أَهْلُ الْفَضائِلِ، مَنْطِقُهُمُ الصَّوابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الاِقْتِصادُ[1]، وَمَشْيُهُمُ التَّواضُعُ.

غَضُّوا أَبْصارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْماعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ، نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخاءِ[2].

وَلَوْلا الْأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْواحُهُمْ فِي أَجْسادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ شَوْقًا إِلَى الثَّوابِ، وَخَوْفًا مِنَ الْعِقابِ

عَظُمَ الْخالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ ما دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِم.

فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآها فَهُمْ فِيها مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآها[3] فَهُمْ فِيها مُعَذَّبُون.

قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسادُهُمْ نَحِيفَةٌ[4]، وَحاجاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ.

(١) ملبسهم الخ، أي أنهّم لا يأتون من شهواتهم إلاّ بقدر حاجاتهم في تقويم حياتهم، فكان الإنفاق كثوب لهم على قدر أبدانهم لكنهم يتوسعون في الخيرات.
(٢) نُزّلت الخ، أي أنهّم إذا كانوا في بلاء كانوا بالأمل في الله كأنهّم كانوا في رخاء لا يجزعون ولا يهنون، وإذا كانوا في رخاء كانوا من خوف الله وحذر النقمة كأنّهم في بلاء لا يبطرون ولا يتجبرون.
(٣) أي هم على يقين من الجنة والنار كيقين من رآهما، فكأنهّم في نعيم الأولى وعذاب الثانية رجاءً وخوفاً.
(٤) نحافة أجسادهم من الفكر في صلاح دينهم والقيام بما يجب عليهم له.

صَبَرُوا أيَّاما قَصِيرَةً أعْقَبَتْهُمْ راحَةً طَوِيلَةً، تِجارَةٌ مُرْبِحةٌ[1] يَسَّرَها لَهُمْ رَبُّهُمْ، أرادَتْهُمُ الدُّنْيا فَلَمْ يُرِيدُوها، وَأسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أمَّا اللَّيْلَ فَصافُّونَ أقْدامَهُمْ تالِينَ لِأجْزاءِ الْقُرْآنِ، يُرَتِّلُو نَها تَرْتِيلاً، يُحَزِّنُونَ بِهِ أنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَبِهِ دَواءَ دائِهِمْ[2]، وَإذا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيها تَخْوِيفٌ أصْغَوْا إلَيْها مَسامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَشَهِيقَها فِي أُصُولِ آذانِهِمْ[3].

فَهُمْ حانُونَ عَلَى أوْساطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجَباهِهِمْ وَأكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ وَأطْرافِ أقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إلَى اللهِ تَعالى فِي فَكاكِ رِقابِهِمْ.

وَأمَّا النَّهارَ فَحُلَماءُ عُلَماءُ أبْرارٌ أتْقِيَاءُ، قَدْ بَراهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِداحِ[4]، يَنْظُرُ إلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى وَما بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَض، وَيَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا[5] وَلَقَدْ خالَطَهُمْ أمْرٌ عَظِيمٌ.

(١) يقال أربحت التجارة إذا أفادت ربحاً.

(٢) استثار الساكن هيجه، وقارئ القرآن يستثير به الفكر الماحي للجهل فهو دواؤه.

(٣) زفير النار: صوت توقّدها. وشهيقها الشديد من زفيرها كأنّه تردد البكاء أو نهيق الحمار، أي أنّهم من كمال يقينهم بالنار يتخيّلون صوتها تحت جدران آذانهم، فهم من شدة الخوف قد حنوا ظهورهم وسلطوا الانحناء على أوساطهم. وفكاك الرقاب خلاصها.

(٤) القداح - جمع قدح بالكسر - وهو السهم قبل أن يراش. وبراه: نحته، أي رقق الخوف أجسامهم كما ترقق السهام بالنحت.

(٥) خولط في عقله أي مازجه خلل فيه، والأمر العظيم الذي خالط عقولهم هو الخوف الشديد من الله.

لا يَرْضَوْنَ مِنْ أعْمالِهِمُ الْقَلِيلَ، وَلا يَسْتَكْثِرُونَ الْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أعْمالِهِمْ مُشْفِقُونَ[1]، إذا زُكِّيَ[2] أحَدٌ مِنْهُمْ خافَ مِمَّا يُقالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أنَا أعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي، اللَّهُمَّ لا تُؤَاخِذْنِي بِما يَقُولُونَ، وَاجْعَلْنِي أفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَاغْفِرْ لِي ما لا يَعْلَمُونَ.

فَمِنْ عَلامَةِ أحَدِهِمْ أنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِين، وَحَزْماً فِي لِين وَإيمَاناً فِي يَقِين، وَحِرْصاً فِي عِلْم، وَعِلْماً فِي حِلْم، وَقَصْداً[3] فِي غِنًى، وَخُشُوعاً فِي عِبادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وَطَلَباً فِي حَلالٍ وَنَشاطاً فِي هُدىً وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَع[4].

يَعْمَلُ الْأعْمالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ، يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ، يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً؛ حَذِراً لَمَّا حُذِّرَ مِنَ الْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِما أصابَ مِنَ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ.

إن اسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيما تَكْرَهُ[5] لَمْ يُعْطِها سُؤْلَها فِيما

(١) مشفقون: خائفون من التقصير فيها.
(٢) زكي: مدحه.
(٣) قصدا أي اقتصاداً. والتجمّل: التظاهر باليسر عند الفاقة أي الفقر.
(٤) التحرّج: عدّ الشيء حرجاً أي إثمًا أي تباعداً عن طمع.
(٥) إن استصعبت أي إذا لم تطاوعه نفسه فيما يشق عليها من الطاعة عاقبها بعدم إعطائها ما ترغبه من الشهوة.

تُحِبُّ، قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيما لا يَزُولُ، وَزَهادَتُهُ فِيما لا يَبْقَى[١] يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ.

تَراهُ قَرِيبا أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خاشِعا قَلْبُهُ، قانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُورا أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزا دِينُهُ[٢]، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ مَكْظُوما غَيْظُهُ، الْخَيْرُ مِنْهُ مَأمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأمُونٌ.

إِنْ كانَ فِي الْغافِلِينَ[٣] كُتِبَ فِي الذّاكِرِينَ، وَإِنْ كانَ فِي الذّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغافِلِينَ.

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيدا فُحْشُهُ[٤]، لَيِّنًا قَوْلُهُ، غَائِبًا مُنْكَرُهُ حاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلًا خَيْرُهُ، مُدْبراً شَرُّهُ، فِي الزَّلازِلِ وَقُورٌ[٥]، وَفِي الْمَكارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخاءِ شَكُورٌ.

لا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلا يَأثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ[٦]، يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ.

(١) ما لا يزول هو الآخرة وما لا يبقى هو الدنيا.
(٢) منزوراً: قليلاً. وحريزاً أي حصيناً.
(٣) أي إن كان بين الساكتين عن ذكر الله فهو ذاكر له بقلبه، وإن كان بين الذاكرين بلسانهم لم يكن مقتصراً على تحريك اللسان مع غفلة القلب.
(٤) الفحش: القبيح من القول.
(٥) في الزلازل أي الشدائد المرعدة. والوقور الذي لا يضطرب.
(٦) لا يأثم الخ أي لا تحمله المحبة على أن يرتكب إثمًا لإرضاء حبيبه.

لا يُضِيعُ مَا اسْتُحْفِظَ، وَلايَنْسَى ما ذُكِّرَ، وَلا يُنابِزُ بالْألْقابِ[1]، وَلا يُضارُّ بالْجارِ، وَلا يَشْمَتُ بالْمَصائِبِ، وَلا يَدْخُلُ فِي الْباطِلِ وَلا يَخْرُجُ مِنَ الْحَقِّ.

إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ.

نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَناءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي راحَةٍ، أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وَأَراحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ.

بُعْدُهُ عَمَّنْ تَباعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَباعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلا دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ»[2].

عاش الإمام عليه السلام حياة طويلة بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى، امتدت إلى ما يقارب الثلاثين عاماً، وقد اقترنت بالدعوة الإسلامية، فتاريخها تاريخ للدعوة الإسلامية.

وقد تعرضت الحياة الإسلامية في عصره لتقلبات عديدة، واختلفت بالمسلمين الأهواء، وحليت الدنيا في أعين البعض وراقهم زبرجها، وهو ما أنبأه به مربّيه الرسول صلى الله عليه وآله حين قال: «**يا علي إنّ القوم سيفتنون بأموالهم، ويمنون بدينهم على ربهم،**

(١) أي لا يدعو غيره باللقب.
(٢) خطبة المتقين ـ نهج البلاغة ج ٢ ص ١٦٠ شرح الشيخ محمد عبده.

ويتمنون رحمته، ويأمنون سطوته، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية»[1].

وكان عليٌّ هو الشاهد الذي لم يتغيّر ولم يتبدّل بتغيّر الظروف والأحوال، فعليٌّ الذي بات في فراش النبي فداءً له؛ ليتيح له الفرصة ليهاجر سرّاً إلى المدينة ليواصل الدعوة، ظلّ بنفس الروح والفدائية إلى أن فاضت روحه الطاهرة في محراب صلاته، ورجعت إلى بارئها راضية مرضية، والفضل في هذه الاستقامة للتقوى، ولأنّ حياته كانت تطبيقاً دقيقاً لهذه الأوصاف التي وصف بها المتقين، فمحور حياته رضا الله، وهدفها عبادته، ومفرداتها العمل الصالح.

وإذا لم نفهم تقوى الإمام عليه السلام يصعب علينا تفسير الكثير من مواقفه، فإنّ كثيراً من الخطط الممكنة، والخطوات التي نصحه البعض باتخاذها لإحراز النصر على أعدائه، كانت في الحقيقة تصطدم بإيمان علي عليه السلام، والتزامه بالأخلاق، وتعهده للرسالة، وزهده في الحياة الدنيا.

ونلمس ذلك بوضوح في الوصف التالي الذي وصفه به ضرار بن ضمرة -وهو أحد أصحابه عليه السلام- فكما جاء في تاريخ دمشق لابن

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ٥٠ شرح الشيخ محمد عبده.

عساكر قال: حين دخل ضرار بن ضمرة على معاوية بن أبي سفيان بعد استشهاد علي عليه السلام قال له معاوية : يا ضرار صف لي علياً.

قال ضرار: أَوَتعفيني من ذلك؟

فقال: لا أعفيك.

فقال ضرار: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفيه، ويخاطب نفسه، ويناجي ربه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب، كان والله فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، وكان مع دنوّه منا وقربنا منه لا نكلّمه لهيبته، ولا نرفع عيننا لعظمته، فإن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظّم أهل الدين، ويحبّ المساكين، ولا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الفقير من عدله.

قال معاوية: زدني في صفته.

قال ضرار: رحم الله علياً كان والله طويل السهاد قليل الرقاد، يتلو كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار ويجود لله بمهجته، ويبوء إليه بعبرته، لا تعلق له الستور، ولا يدّخر عنا البدور، ولا يستلين

الاتكاء، ولا يستخشن الجفاء، فأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأنّي الآن أسمعه يقول:

«يا دنيا أَبِي تعرّضتِ؟ أم إليَّ تشوّقتِ؟ هيهات هيهات، غرّي غيري لا حاجة لي فيك، قد طلّقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيها، فعمرك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير.. آهـ...آهـ..آهـ من قلّة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق وعظم المورد».

قال معاوية: فكيف صبرك عنه يا ضرار؟

قال ضرار: صبرُ مَن ذُبح واحدها على صدرها، فهي لا ترقى عبرتها ولا تسكن حسرتها.

ثمّ قام وخرج وهو باكٍ[1].

فمعرفة الله والخوف منه هما اللذان يحكمان سلوك أمير المؤمنين عليه السلام، وكانت كلماته تفيض بذكر الله والحضّ على طاعته، فما وقف موقفاً من مواقفه إلا وذكّر بالله وأمر بتقواه، وهو الذي هجر مضجعه أبان توليه للخلافة، وحين سئل عن ذلك قال: إذا

(١) تاريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ج ٢٤ ص ٤٠١.

نمت نهاراً ضيّعت رعيتي، وإذا نمت ليلاً ضيّعت نفسي.

وقد أعاد عليه السلام بعث الخلق النبوي، وأعاد غرس مبادئ الرسالة الإسلامية؛ بوضعه للنموذج الذي استعصى على الطغاة بعده إزالته، أو إقصائه من المجتمع الإسلامي، وشيّد سوراً عالياً أحاط به القيم والمبادئ من أن تدنّس ويداس حريمها، لم يستطع من جاء بعده أن يتسوّروه فاضطروا أن يلتفوا حوله.

ومن التقوى التي كانت محور حياة الإمام تشعّبت صفاته العظيمة وأخلاقه الكريمة، (وما من موقف وقفه في عمره الكريم إلّا وكان للتقوى فيه أثر واضح، فبالرغم أنّ عصر الإمام كان عصر الأثرة والأنانية والملق والدجل والمكر والانحدار في الأخلاق، كان هو نموذجاً في الوفاء والمروءة والصدق وكرم النفس، والصراحة والشجاعة والعطف، والنبل والصبر ونكران الذات، والحياء وهو توأم الإيمان)[1].

وسنتعرّض لمواقفه التي تعبّر عن تلك الصفات.

فمن حيائه عليه السلام أنّه لم ينظر إلى عورة إنسان قط، بل إنّه عندما خُيّر بين أن يتخلّص من ألدّ أعدائه وأن ينظر إلى عورته، آثر أن

(١) أخلاقيات أمير المؤمنين عليه السلام ـ السيد هادي المدرسي.

يجعله يفلت منه، ففي معركة صفين بعد أن تكرّرت دعوة الإمام معاوية للمبارزة، وإحجامه عن الإجابة ومجادلته مع عمرو بن العاص -الذي كان يصرّ على معاوية أن يبارز الإمام-، أخذت عمرو العزّة بالإثم، فقال في إحداها (أتجبن عن عليٍّ وتتهمني في نصيحتي إليك؟ والله لأبارزنّه ولو مُتُّ ألف موتة).

وبارز عمرو علياً، فما هي إلّا لحظات حتى طعنه عليٌّ فصرعه، ثمّ ومض سيفه كشعلة من النار فوق هامته فأدرك عمرو أنّه هالك فكشف عن عورته وهو يتخبّط على الأرض، فصرف الإمام وجهه عنه وتركه يسرع هارباً.

فقال بعض أصحاب الإمام: أفلتْ الرجل يا أمير المؤمنين. فقال عليه السلام: تلقّاني بعورته فصرفتُ وجهي عنه.

وبالرغم من أنّ مصرع عمرو بن العاص -لو كان يتم- كان ربما يغيّر معادلة الحرب كلّها لمصلحة الإمام، لِمَا كان يسبّبه من الذعر في جيش الشام، بالإضافة إلى أنّ ذلك كان يعني القضاء على الساعد الأيمن لمعاوية، وصاحب الحيلة الأولى في أصحابه، فإنّ الإمام التزم بكرم النفس، ولم يلتزم بإحراز النصر.

وتكرر الأمر مع بسر بن أرطأة عندما وجد نفسه أثناء المعركة

فجأة أمام الإمام علي عليه السلام، فتذكّر حيلة عمرو بن العاص، وتركه الإمام ونظم نضر بن الحارث من أصحاب علي عليه السلام في ذلك شعراً حيث قال:

أفي كلّ يومٍ فارس تندبونه ... له عورة وسط العجاجة باديه
يكفّ بها عنه عليٌّ سنانه ... ويضحك منها في الخلاء معاويه
بدتْ أمس مِن عمرو فقنع رأسه ... وعورة بسر مثلها حذو حاذيه
فقولا لعمرو وابن أرطاة أبصرا ... سبيلكما لا تلقيا الليث ثانيه
ولا تحمدا إلّا الحيا وخصاكما ... هما كانتا والله للنفس واقيه
فلولا هما لم تَنجُوَا من سنانه ... وتلك بما فيها عن العود ناهيه
متى تلقَيَا الخيل المشيحة صبحة ... وفيها عليٌّ فاتركا الخيل ناحيه
وكونا بعيداً حيث لا يبلغ القنا ... وحمى الوغى إنّ التجارب كافيه
وإن كان منه بعد في النفس حاجة ... فعودا إلى ما شئتما هي ماهيه[1]

وهناك أمر آخر كان ملازماً لتقوى الإمام عليه السلام وهو وعيه لأهدافه، فلم تغب عنه لحظة، ففي أحلك الظروف والإمام عليه السلام يرتّب الصفوف لمعركة الجمل، يقف أحد رجال جيشه ليسأله عن

(١) وقعة صفين ـ نصر بن مزاحم ص ٤٦٢، البداية والنهاية ـ ابن كثير ج٤ ص ٢٣، السيرة النبوية ـ ابن كثير ج ٣ ص ٤٠.

مسألة فقهية تخص الصلاة، ممّا دعا أصحاب الإمام يثورون في وجه السائل لدقة الموقف، فما كان من الإمام إلّا أن وبّخهم قائلاً: على ماذا نقاتل القوم إذاً؟ ثمّ أجاب الرجل عن مسألته.

وفي ليلة الهرير -وهي من أشدّ الليالي في معركة صفين، حيث امتد القتال فيها إلى الليل- بُسِط له قطع بين الصفين، فصلّى عليه وأدّى ورده والسهام تقع بين يديه، تمرّ على صماخيه يميناً ويساراً، فلم يرتع لذلك وما قام حتّى فرغ من وظيفته، وحينما قال له أحدهم: يا أمير المؤمنين ألا تؤجّلها؟ قال: ويلك علامَ نقاتلهم إذن؟

(ب) العدل

قد ذكرنا أنّ الإيمان يتكوّن من مفردتين واحدة منهما التقوى، وهي أيضا منبع لثلاث قيم رئيسة تتفرّع منها عدّة شعب.

وإحدى هذه القيم الثلاث الرئيسة هي العدل، والعدالة سنّة الله في الحياة وأساسها (أقوى أساس)؛ لأنّ «**الْعَدْلَ مِيزَانُ اللهِ الَّذِي وَضَعَهُ لِلْخَلْقِ وَنَصَبَهُ لِإِقَامَةِ الْحَق**»[1]، وأيّ تخطٍ عنه هو مخالفة لميزانه، ومعارضة لسلطانه.

وإذا كان العدل مطلوباً في كلّ شيء، ومن كلّ أحد في كلّ المواقع لأنّه (فضيلة الإنسان)، ومن دونه يفقد الإنسان إنسانيته، فإنّه مطلوب من الولاة أكثر من أيّ شيء آخر؛ لأنّ الناس لا يريدون الحاكم لأمواله، ولا لأولاده، ولا لهيئته وجمال منظره، ولا حتى لزهده وعبادته وتقواه، بل يريدونه لعدله ولمراعاة حقوقهم، وتأمينه لحاجاتهم فقد «**جَعَلَ اللهُ الْعَدْلَ قِوَامًا لِلْأَنَام، وَتَنْزِيهًا عَنِ الْمَظَالِمِ وَالْآثَامِ، وَتَسْنِيَةَ الْإِسْلَامِ**»[2] و«**عَدْلُ اَلسُّلْطَانِ خَيْرٌ مِنْ**

(١) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي، ص ١٥٠.
(٢) عيون الحكم والمواعظ، ص٢٢٣.

خِصْبِ الزَّمَانِ»[1]؛ لأنّ عدل السلطان يفتح بركات الأرض ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا...**﴾[2] وجور السلطان يذهب بخيرات الزمان، وقد سُئل أمير المؤمنين عليه السلام أيّهما أفضل: العدل أو الجود؟ فقال: «**الْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا**»[3]

فالعدالة تشتمل على كلّ الفضائل، وهي الحقيقة المتحرّكة التي تحرّك البشرية كلّها في كلّ العصور، ولذلك فإنّ «**عَدْلُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً قِيَامِ لَيْلُهَا وَصِيَامِ نَهَارُهَا، وَجَوْرُ سَاعَةٍ فِي حُكْمٍ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ مَعَاصِي سِتِّينَ سَنَةً**»[4]، وذلك أنّ العدل يبني والجور يهدم، والعدل يصنع الحضارات والجور يبيدها، والعدل يجمع والجور يفرّق، ولأنّ للعدل هذا المكان الحسّاس في النظام الإنساني فإنّ الله تعالى أمر أن ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾[5] فهو تعالى ﴿**يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**﴾[6].

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: (٩٦).
(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ٢٠، ص ٨٥.
(٤) البحار ج٧٥، ص ٣٥٢.
(٥) سورة النساء، الآية: (٥٨).
(٦) أخلاقيات أمير المؤمنين عليه السلام آية الله السيد هادي المدرسي.

ونحن في إطار مقارنة علي عليه السلام مع الآخرين من المهم أن نتعرّض لقيمة العدل في حكمه، لأنّ المقارنة غالباً ما تعقد بينه وبين الذين تعاقبوا على سدة إدارة الدولة الإسلامية، فما هو موقع العدل من حكم علي عليه السلام، نعرف ذلك من خلال البيان الأوّل لحكومته عليه السلام، فقد اشتهرت الكلمات التي استفتح بها عهده، خصوصا أنّه جاء في أعقاب ثورة أطاحت بالخليفة الثالث، فماذا قال عليه السلام؟

خطبة علي عليه السلام في بداية حكمه:

«ذِمَّتِي بِمَا أَقُولُ رَهِينَةٌ[1] وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ إِنَّ مَنْ صَرَّحَتْ لَهُ الْعِبَرُ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَثُلَاتِ حَجَزَتْهُ التَّقْوَى عَنْ تَقَحُّمِ الشُّبُهَاتِ[2]، أَلَا وَإِنَّ بَلِيَّتَكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ[3] [نَبِيَّكُمْ]، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً[4] وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ

(١) الذمّة العهد، تقول هذا الحق في ذمّتي كما تقول في عنقي، وذلك كناية عن الضمان والالتزام، والزعيم الكفيل. يريد أنّه ضامن لصدق ما يقول كفيل بأنّه الحق الذي لا يدافع.

(٢) العِبرَ بكسر ففتح جمع عبرة بمعنى الموعظة، والمثلات العقوبات، أي من كشف له النظر في أحوال من سبق بين يديه، وحقق له الاعتبار والاتعاظ أنّ العقوبات التي نزلت بالأمم والأجيال والأفراد من ضعفٍ وذلٍّ وفاقةٍ وسوءِ حالٍ إنّما كانت بما كسبوا من ظلم وعدوان، وما لبسوا من جهل وفساد أحوال. حجزته التقوى وهي التحفّظ من الوقوع فيما تجلب تلك العقوبات لأهلها فمنعته عن تقحّم الشبهات والتردّي فيها، فإنّ الشبهة مظنّة الخطيئة والخطيئة مجلبة العقوبة.

(٣) البلية الامتحان، وعادت كهيئتها رجعت إلى حالتها زمن بعث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ويعني أنّ ابتلاء المسلمين به الآن كابتلاء الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقت بعثته.

(٤) تبلبل الألسن اختلاطها.

الْقِدْرِ[1] حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاَكُمْ وَأَعْلاَكُمْ أَسْفَلَكُمْ، وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا، وَاللهِ مَا كَتَمْتُ وَشْمَةً[2] وَلاَ كَذَبْتُ كِذْبَةً، وَلَقَدْ نُبِّئْتُ بِهَذَا الْمَقَامِ وَهَذَا الْيَوْمِ. أَلَا وَإِنَّ الْخَطَايَا خَيْلٌ شُمُسٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَخُلِعَتْ لُجُمُهَا فَتَقَحَّمَتْ بِهِمْ فِي النَّارِ، أَلَا وَإِنَّ التَّقْوَى مَطَايَا ذُلُلٌ حُمِلَ عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَأُعْطُوا أَزِمَّتَهَا فَأَوْرَدَتْهُمُ الْجَنَّةَ[3]، حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَلِكُلٍّ أَهْلٌ، فَلَئِنْ أَمِرَ الْبَاطِلُ لَقَدِيمًا فَعَلَ، وَلَئِنْ قَلَّ الْحَقُّ فَلَرُبَّمَا وَلَعَلَّ وَلَقَلَّمَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ[4].

(١) أي تُجعلون في الغربال كالدقيق يغربل، وقد ذكر الشيخ محمد عبده أنّ الغربلة هي التقطيع من غربلة اللحم أي قطعته. ولتساطن ولتقلبن، سوط: تقلب، وقوله سوط القدر: أي كما تختلط الأبزار ونحوها في القدر عند غليانه فينقلب أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها.

(٢) والله ما كُتِمت بصيغة المبني للمجهول: أي من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وشمة: أي كلمة كما عن ابن السكيت، والأصل فيه شيء حقير كلمة أو غيرها، يقال ما أصابتنا العام وشمة أي قطرة، ويقال ما عصيتك وشمة أي أدنى معصية، وهذا مقدّمة لما أراد أن يقوله من أنّه نُبئ بموقفه هذا.

(٣) الشُّمُس بضمتين فسكون جمع شموس، وهي من شَمَسَ كنَصَرَ أي منع ظهره أن يركب، وفاعل الخطيئة إنّما يقترفها لغاية زيّنت له يطلب الوصول إليها، فهو شبيه براكب فرس يجريه إلى غايته، لكن الخطايا ليست إلى الغايات بمطايا فإنّها اعتساف عن السبيل واختباط في السير، لهذا شبّهها بالخيل الشمس التي قد خلعت لجامها؛ لأنّ من لم يلجم نفسه بلجام الشريعة أفلتت منه إلى حيث ترديه وتتقحم به في النار. وتشبيه التقوى بالمطايا الذلل ظاهر؛ فإنّ التقوى تحفظ النفس من كلّ ما ينكبها عن صراط الشريعة، فصاحبها على الجادة لا يزال عليها حتى يوافي الغاية. والذلل جمع ذلول وهي المروضة الطائعة السلسة القياد.

(٤) أي أنّ ما يمكن أن يكون عليه الإنسان ينحصر في أمرين: الحق والباطل، ولا يخلو العالم منهما، ولكلٍّ من الأمرين أهلٌ، فللحق أقوام وللباطل أقوام، ولئن أمر الباطل أي كثر بكثرة أعوانه فلقد كان منه قديماً لأنّ البصائر الزائغة عن الحقيقة أكثر من الثابتة عليها. ولئن كان الحق قليلاً بقلّة أنصاره فلربما غلبت قلّته كثرة الباطل ولعلّه يقهر الباطل ويمحقه.

شُغِلَ مَنِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ أَمَامَهُ سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى[1]، الْيَمِينُ وَالشِّمَالُ مَضَلَّةٌ وَالطَّرِيقُ الْوُسْطَى هِيَ الْجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الْكِتَابِ وَآثَارُ النُّبُوَّةِ وَمِنْهَا مَنْفَذُ السُّنَّةِ وَإِلَيْهَا مَصِيرُ الْعَاقِبَةِ، هَلَكَ مَنِ ادَّعَى وَخَابَ مَنِ افْتَرَى، مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِلْحَقِّ هَلَكَ[2]، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَلاَّ يَعْرِفَ قَدْرَهُ، لَا يَهْلِكُ عَلَى التَّقْوَى سِنْخُ أَصْلٍ[3]، وَلاَ يَظْمَأُ عَلَيْهَا زَرْعُ قَوْمٍ، فَاسْتَتِرُوا فِي بُيُوتِكُمْ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَالتَّوْبَةُ مِنْ وَرَائِكُمْ، وَلَا يَحْمَدْ حَامِدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَلُمْ لَائِمٌ إِلَّا نَفْسَه»[4]

ثمّ تحدّث -بعد هذه الخطبة العصماء التي افتتح بها سياسته- عن مظالم الحكام السابقين، وقد قال عن ما جرى في عهد عثمان، كما رواه الكلبي عن ابن عباس، وأثبت الشريف الرضي منه في كتابه نهج البلاغة: أَنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ بَعْدَ أَنْ بَايَعُوهُ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: **«أَلَا وَكُلُّ قِطْعَةٍ أَقْطَعَهَا[5] عُثْمَانُ أَوْ مَالٍ أَعْطَاهُ مِنْ مَالِ اللهِ فَهُوَ رَدٌّ**

(١) (شغل) مبني للمجهول نائب فاعله (مَن)، والجنّة والنار مبتدأ خبره أمامه. والجملة صلة (مَن) أي كفى شاغلاً أن تكون الجنّة والنار أمامك. ومَن كانت أمامه الجنّة والنار على ما وصف الله سبحانه فحريٌّ به أن تنفد أوقاته جميعها في الإعداد للجنّة والابتعاد عما عساه يؤدّي إلى النار.

(٢) من كاشف الحق مخاصمًا له مصارحاً له بالعداوة هلك.

(٣) السنخ المثبت يقال ثبتت السن في سنخها أي منبتها، والأصل لكل شيء قاعدته وما قام عليه بقيته.

(٤) نهج البلاغة ج ١ ص ٤٦ شرح الشيخ محمد عبده.

(٥) أقطعه قطعة أي أعطاه طائفة من ماله، وله عليهم قطعة أي إتاوة معلومة.

عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي بَيْتِ مَالِهِمْ؛ فَإِنَّ الْحَقَّ لَا يُذْهِبُهُ الْبَاطِلُ»[1].

«وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ لَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تُزُوِّجَ بِهِ النِّسَاءُ، وَتَفَرَّقَ فِي الْبُلْدَانِ، لَرَدَدْتُهُ عَلَى أَهْلِهِ؛ فَإِنَّ فِي الْحَقِّ وَالْعَدْلِ لَكُمْ سَعَةً، وَمَنْ ضَاقَ بِهِ الْعَدْلُ فَالْجَوْرُ بِهِ أَضْيَقُ»[2].

هذا بخصوص ما سبقه مباشرة من الفساد من قطائع عثمان والأموال التي كان يبذلها لأقربائه من بيت مال المسلمين، ولم يكتفِ الإمام بمعارضة سياسة عثمان فقط، ولكن امتدت إصلاحاته لتشمل كلّ السياسات السابقة المخالفة لشريعة الإسلام العادلة، ومن ذلك إلغاء التفرقة في العطاء التي ابتدعها عمر بن الخطاب[3]، والعودة إلى التسوية فيه على سنّة المصطفى ﷺ، وقد عوتب عليه السلام على ذلك من بعض أنصاره؛ خوفاً أن يتفرق عنه المتضرّرون من المساواة فقال لمن عاتبه في ذلك: **«أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ؟ وَاللهِ لَا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ وَمَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْمًا، وَلَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ، فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللهِ؟»**[4].

(١) دعائم الإسلام في معرفة الحلال والحرام ص ٣٩٦.
(٢) نهج البلاغة ج ١ ص ٤٦ شرح الشيخ محمد عبده.
(٣) تفريق عمر في العطاء معروف نقله المؤرّخون، انظر تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٥٤.
(٤) نهج البلاغة ج ٢ ص ٧ شرح الشيخ محمد عبده.

وفي ما رواه صاحب شرح نهج البلاغة عن أبي جعفر الإسكافي أنّه قال: «**أَلا لا يقولنّ رجالٌ منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجّروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارهة، واتخذوا الوصائف الروقة[1]، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأَصَرْتُهُم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون: حَرَمنا ابن أبي طالب حقوقنا. أَلا وأيّما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يرى أنّ الفضل له على سواه لصحبته، فإنّ الفضل النيّر غداً عند الله، وثوابه أجره على الله، وأيّما رجل استجاب لله وللرسول فصدّق ملّتنا ودخل في ديننا واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله، والمال مال الله يُقسَم بينكم بالسوية، لا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء وأفضل الثواب، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً وما عند الله خيرٌ للأبرار، وإن كان غداً إن شاء الله فاغدوا علينا فإنّ عندنا مالاً نَقْسِمه فيكم، ولا يتخلفنّ أحدٌ منكم عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن إلّا حضر إذا كان مسلماً حراً،**

(١) الروقة: الجميل جداً من الناس، لسان العرب: ج١٠، ص١٣٤.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. ثمّ نزل»[1].

هذا مجمل البيانات الأولى لحكومة الإمام علي عليه السلام، وتفهم قوّتها ودلالتها من خلال السياق التاريخي الذي وجدت فيه، فبعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ظلّت الأمور المالية عرضة لاجتهادات الخلفاء من بعده، وتُرِكت سنّته في تقسيم الأموال، وابتدعت طرق لتقسيم أموال المسلمين، وتقسيمهم درجات يأتي القرشيون والمهاجرون في أعلى سلّم الدرجات، وقد يعلّل بعض المتفلسفين هذا التقسيم المبتدع أنّ الله قدّم المهاجرين على الأنصار وغيرها من التبريرات الواهية، التي ضربها الإمام علي عليه السلام بتوضيح أنّ الفضل والتفاضل مقرون بجزاء الله يوم القيامة، وأوضح من ذلك ما قاله في خطبته بعد أن قسم الفيء وساوى فيه بين المسلمين جميعا عربيهم وأعجميهم، فقد غيّر ذلك قلوب القرشيين عليه وعلى رأسهم طلحة والزبير وبنو أمية؛ الذين حاولوا أن يساوموا الإمام ليترك في أيديهم ما أخذوه من مال المسلمين في عهد عثمان.

فقد نقل صاحب شرح النهج عن أبي جعفر الإسكافي قال: فبينا الناس في المسجد بعد الصبح، إذ طلع الزبير وطلحة فجلسا ناحية عن علي عليه السلام، ثمّ طلع مروان وسعيد وعبدالله بن الزبير

(١) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد المعتزلي ج ٧، ص ٣٧. ونقلها الشيخ الطوسي في الأمالي، ص٧٢٧.

فجلسوا إليهما، ثمّ جاء قوم من قريش فانضموا إليهم، فتحدّثوا نجياً ساعة، ثمّ قام الوليد بن عقبة بن أبي معيط فجاء إلى علي عليه السلام فقال: يا أبا الحسن، إنّك قد وترتنا جميعاً، أمّا أنا فقتلت أبي يوم بدر صبراً، وخذلت أخي يوم الدار بالأمس، وأمّا سعيد فقتلت أباه يوم بدر في الحرب وكان ثور قريش، وأمّا مروان فسخّفت أباه عند عثمان إذ ضمّه إليه، وها نحن إخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنّا ما أصبناه من المال في أيام عثمان، وأن تقتل قتلته، وإنّا إن خفناك تركناك فالتحقنا بالشام.

فقال: أما ما ذكرتم من وتري إيّاكم فالحقُّ وَتَرَكم، وأمّا وضعي عنكم ما أصبتم فليس لي أن أضع حقّ الله عنكم ولا عن غيركم، وأمّا قتلي قتلة عثمان لو لزمني قتلهم اليوم لقتلتهم أمس، ولكن لكم عليّ إن خفتموني أن أؤمنكم وإن خفتكم أن أسيّركم.

فقام الوليد إلى أصحابه فحثّهم، وافترقوا على إظهار العداوة وإشاعة الخلاف، فلمّا ظهر ذلك من أمرهم قال عمّار بن ياسر لأصحابه: قوموا بنا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم فإنّه قد بلغنا عنهم ورأينا منهم ما نكره من الخلاف والطعن على إمامهم، وقد

دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير والأعسر العاق -يعني طلحة-.

فقام أبو الهيثم وعمّار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم فدخلوا على عليٍّ عليه السلام، فقالوا: يا أمير المؤمنين انظر في أمرك وعاتب قومك هذا الحي من قريش، فإنّهم قد نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك، وقد دعونا في السر إلى رفضك، هداك الله لرشدك، وذاك لأنّهم كرهوا الأسوة وفقدوا الأَثَرَة، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوك وعظّموه، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقةً للجماعة وتألّفاً لأهل الضلالة، فرأيك!

فخرج عليٌّ عليه السلام فدخل المسجد وصعد المنبر مرتدياً بطاق مؤتزراً ببرد قطري، متقلّداً سيفاً متوكّئاً على قوس فقال:

«أمّا بعد، فإنّا نحمد الله ربّنا وإلهنا ووليّنا وولي النعم علينا، والذي أصبحت نعمه علينا ظاهرة وباطنة، امتنانـًا منه بغير حول منّا ولا قوّة، ليبلونا أنشكر أم نكفر، فمن شكر زاده ومن كفر عذّبه، فأفضل الناس عند الله منزلة وأقربهم من الله وسيلة أطوعهم لأمره، وأعملهم بطاعته، وأتبعهم لسنة رسوله، وأحياهم لكتابه، ليس لأحد عندنا فضل إلّا بطاعة الله وطاعة الرسول، هذا كتاب الله بين أظهرنا، وعهد رسول الله وسيرته فينا، لا يجهل ذلك إلّا

جاهلٌ عاندٌ عن الحق منكر»، قال الله تعالى :﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾(١).

ثمّ صاح بأعلى صوته: «**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإن الله لا يحب الكافرين**».

ثمّ قال: «**يا معشر المهاجرين والأنصار، أتمنّون على الله ورسوله بإسلامكم؟ بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين**».

ثمّ قال: «**أنا أبو الحسن -وكان يقولها إذا غضب-، ثمّ قال :أَلا إنّ هذه الدنيا التي أصبحتم تمنّونها وترغبون فيها، وأصبحتم تغضبكم وتُرضيكم، ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له، فلا تغرنّكم فقد حذّرتكموها، واستتمّوا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله والذل لحكمه جلّ ثناؤه، فأمّا هذا الفيء فليس لأحدٍ على أحدٍ فيه أَثَرة، وقد فرغ الله من قسمته فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبيّنا بين أظهرنا، فمن لم يرضَ به فليتولَّ كيف**

(١) سورة الحجرات، الآية: (١٣).

شاء، فإنّ العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا وحشة عليه».

ثمّ نزل عن المنبر فصلّى ركعتين، ثمّ بعث بعمار بن ياسر وعبد الرحمن بن حسل القرشي إلى طلحة والزبير وهما في ناحية المسجد، فأتياهما فدعواهما فقاما حتى جلسا إليه عليه السلام.

فقال لهما: «**نشدتكما الله هل جئتماني طائعين للبيعة، ودعوتماني إليها وأنا كاره لها؟**»

قالا: نعم.

فقال: «**غير مجبرين ولا مقسورين، فأسلمتما لي بيعتكما وأعطيتماني عهدكما**».

قالا: نعم.

قال: «**فما دعاكما بعد إلى ما أرى؟**»

قالا: أعطيناك بيعتنا على ألا تقضي الأمور ولا تقطعها دوننا، وأن تستشيرنا في كلّ أمر، ولا تستبدّ بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمتَ، فأنت تقسم القسم وتقطع الأمر وتمضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا.

قال: «**لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً، فاستغفرا الله يغفر لكما، أَلا تخبراني أدفعتكما عن حقٍّ وجب لكما فظلمتكما إياه؟**»

قالا: معاذ الله!

قال: «**فهل استأثرتُ من هذا المال لنفسي بشيء؟**»

قالا: معاذ الله!

قال: «**أَفَوَقع حكمٌ أو حقٌّ لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفتُ عنه؟**»

قالا: معاذ الله!

قال: «**فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟**»

قالا: خلافك عمر بن الخطاب في القسم، إنّك جعلت حقّنا في القسم كحقّ غيرنا، وسوّيت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا، وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، وأخذناه قسراً وقهراً ممن لا يرى الإسلام إلّا كرها.

فقال: «**فأمّا ما ذكرتماه من الاستشارة بكما فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها وجعلتموني عليها، فخفتُ أن أردّكم فتختلف الأمة، فلمّا أَفْضتْ إليَّ نظرتُ في كتاب الله وسنة رسوله فأمضيتُ ما دلّاني عليه واتبعته، ولم أحتج إلى آرائكما فيه ولا رأي غيركما، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله بيانه، ولا في السنة برهانه، احتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه**».

«وأمّا القسم والأسوة فإنّ ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء، قد وجدت أنا وأنتما رسول الله ﷺ يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد».

«وأمّا قولكما: جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا، فقديمًا سبق إلى الإسلام قوم ونصروه بسيوفهم ورماحهم فلم يفضّلهم رسول الله ﷺ في القسم ولا آثرهم بالسبق، والله سبحانه موفٍ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم، وليس لكما والله عندي ولا لغيركما إلّا هذا، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإيّاكم الصبر». ثمّ قال: **«رحم الله امرأً رأى حقًّا فأعان عليه ورأى جوراً فردّه وكان عونًا للحقّ على من خالفه».**[1]

عزل عمّال عثمان:

من القرارات الإصلاحية التي اتخذها أمير المؤمنين عليه السلام عزله لعمّال عثمان، فقد قال اليعقوبي في تاريخه: عزل عليٌّ عمّال عثمان عن البلدان خلا أبي موسى الأشعري، كلّمه الأشتر فأقرّه، وقد نصحه البعض بإبقاء بعض عمّال عثمان؛ حتّى يستتب له الأمر، ثمّ

(١) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد المعتزلي ج ٧ ص ٣٩ – ٤٢.

عَزْلِهم بعد ذلك، ومنهم المغيرة بن شعبة كما نقل ذلك الطبري[1]، ولكنّ أمير المؤمنين أجابه: «**أتضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته إلى خلعه؟**» قال: لا. فقال عليه السلام: «**لا يسألني الله عزّ وجلّ عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء أبدا وما كنت متخذ المضلين عضدا**».[2]

مفردات العدل:

هذه المواقف الواضحة لم يتراجع عنها الإمام عليه السلام طوال فترة حكمه، وأنزلها إلى أرض الواقع، ويمكن أن نتابع هذه المواقف من خلال تتبعنا لمفردات العدل في حياة الإمام، فإذا قلنا إنّ العدل هو تجنّب البغي والعدوان، وإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، فمفرداته هي :

- التزام العدل في تقسيم الأموال العامّة.
- إنصاف المظلومين.
- الامتناع عن التعدّي والبغي.
- الامتناع عن التكبّر.

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٦٠.
(٢) الاختصاص للمفيد، الطبري، مروج الذهب، اليعقوبي، الاستيعاب.

- التشدّد مع المسؤولين لمصلحة عامّة.
- مساعدة الجميع، واللطف بهم.
- الرفق في جمع الحقوق المالية.

تلك هي بعض مفردات العدالة المطلوبة من الحاكمين، باعتبارهم أمناء على أمور الناس وأرزاقهم ودمائهم.

ولنستعرض فيما يلي بعض كلمات الإمام علي ومواقفه وأعماله في كل واحدة من هذه المفردات.

١/ التزام العدل في تقسيم أموال العامّة وإنصاف المظلومين:

والأوّل يعني أمرين

أوّلهما: بذل المال لِمَن يستحق.

الثاني: منعه عمّن لا يستحق.

فأموال الدولة ليست ملكاً للحاكم، بل هي للمحكومين، وليس الحاكم إلّا أميناً على جبايتها، وإيصالها لأهلها.

لقد كتب الإمام علي عليه السلام لأحد ولاته يقول:

«وانْظُر إلى ما اجْتَمَعَ عندك مِن مَال اللهِ، فَاصْرِفْهُ إلى مَن قِبَلَك مِن ذَوِي الْعِيَال والْمَجَاعَةِ مُصِيبًا بِهِ مَوَاضِعَ الْفَاقَة والْخَلّاتِ،

وما فَضَلَ عَن ذَلِك فَاحْمِلْهُ إِلَيْنَا لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قِبَلَنَا»[1].

وكما قلنا إنّ هذا الأمر لا يمكن أن نعرف قيمته، إلّا بمعرفة الظروف السابقة للإمام علي عليه السلام، فالأموال كانت قبله إمّا تصرف على الأقربين، أو تشترى بها الولاءات. فراجع تاريخ الخلفاء قبل أمير المؤمنين عليه السلام، لتعرف أنّ الرجوع إلى سنّة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله كانت مسألة شاقة، ونفرت منها نفوس الكثيرين الذين تعودوا على الأثرة.

ومن سنّة الرسول أن لا يبيت في بيت مال المسلمين درهم، بل يعاجل الأموال بالتوزيع، وكذلك كان يفعل الإمام عليه السلام، وقد جاءه في مرّة من المرّات فيء كثير ملأ بيت المال مرّة بعد مرّة، ثمّ ثالثة، فقام فوزّعه بالسوية بين المسلمين كما تعوّد، وأخذ نصيبه كواحد منهم. ثمّ جاءه مال آخر كثير من أصبهان فخطب الناس فقال: «**اغدوا إلى عطاء رابع، فوالله ما أنا بخازن**». وبعد أن وزّع الأموال كنس بيت المال وصلّى فيه كما تعود، ثمّ تمدّد على أرضه فأغفى[2].

فالمال لا قيمة له إن لم يرفع حاجة الناس، ولم يُبذل لمن يستحقه.

(١) نهج البلاغة، رسائل الإمام علي عليه السلام، رسالة ٤٤.
(٢) علي إما م المتقين ج٢، ص ٣٠٨.

ويمكن مقارنة ما فعله علي عليه السلام عند دخوله بيت مال البصرة، بما فعله طلحة والزبير حين دخولهم إليه، حتّى نعرف الفرق بينه وبينهم، فقد نقل البلاذري عن أبي الأسود: أنّ الزبير بن العوّام لما قدم البصرة بعث إليَّ وإلى نفر، ودخل بيت المال فإذا هو بصفراء وبيضاء، فقرأ، ﴿**وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ**﴾[1] وقال: فهذه لنا، وهذا ما وعدنا الله.

قال أبو الأسود: ثمّ لمّا قدم عليٌّ دخل بيت المال فإذا صفراء وبيضاء فاصر ما بها وقال: «**غُرّي غيري غُرّي غيري**»[2].

وتكرّر منه ذلك عند دخوله بيت مال الكوفة، كما روى البلاذري بسنده قال: لمّا فرغ علي بن أبي طالب من أهل الجمل أتى الكوفة فدخل بيت مالها فأضرط به ثمّ قال: يا مال غرّي غيري.

قال الرواي: ثمّ قسمه بيننا، ثمّ جاءت ابنة للحسن -أو للحسين- فتناولتْ منه شيئا، فسعى وراءها ففكّ يدها ونزعه منها فقلنا: يا أمير المؤمنين إنّ لها فيه حقّاً! قال: إذا أخذ أبوها حقّه فليعطها ما شاء.

فلمّا فرغ من قسمته قسم بيننا حبالاً جاءت من البحرين فأبينا

(١) سورة الفتح، الآية: (٢٠).
(٢) أنساب الأشراف- البلاذري ص ١٣٣.

قبضها فأكرهنا عليها، فخرجت كتاناً جيّداً فتنافسنا فيها فبلغت دراهم، ثمّ عمد إلى بيت المال فكسحه ونضحه بالماء، ثمّ صلى فيه ركعتين، ثمّ توسّد رداءه وقال: ينبغي لبيت مال المسلمين أن لا يأتي عليه يوم - أو جمعة - إلّا كان هكذا ليس فيه شيء، قد أخذ كلّ ذي حق حقه.

وكان عليه السلام يقسم كلّ ما يأتي إلى بيت المال قليلاً كان أو كثيراً، فقد روى البلاذري في أنساب الأشراف وغيره بسنده عن عبيد عن رجل من قومه يقال له الحكم قال: شهدتُ عليّاً وأتي بزقاق من عسل، فدعا اليتامى وقال: ذبوا والعقوا. حتّى تمنّيت أنّي يتيم. فقسمه بين الناس وبقي منه زقا فأمر أن يسقاه أهل المسجد. قال: وشهدته وأتاه رمان فقسمه بين الناس فأصاب (أهل) مسجدنا عشر رمانات[1].

وكما يُعطى المال مَن يستحقه لا بدّ أيضا من منعه عمّن لا يستحق ﴿**كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ**﴾[2]، فلا يجوز العطاء من غير استحقاق، أو لشراء الضمائر، أو للتوزيع على الأقرباء والأنساب، فقد اشترى أبو بكر وعمر رضا أبي سفيان بترك

(١) أنساب الأشراف - البلاذري ص ١٣٦.
(٢) سورة الحشر، الآية: (٧).

الصدقات التي جاء بها بيده على حسب نصيحة عمر لأبي بكر[1]، أمّا عثمان فقد أقطع أموال المسلمين لأقربائه؛ حيث أقطع مروان فدك وهي حسب دعواهم من أموال المسلمين، وأعطاه خمس غزوة أفريقيا هو وعبد الله بن أبي السرح، وأقطع مهروز وهو سوق المسلمين للحارث بن الحكم، إلى غيرها من المظالم التي يجدها من طالع سيرته، بينما أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن يشترى بمال الله ومال المسلمين الضمائر، ولم يكن يصرفها على أهله وأقربائه، وقصته مع أخيه عقيل من أشهر القصص، وقد قصّها الإمام بنفسه في خطبة من خطبه التي يصف فيها كراهيته للظلم، وعفته،وأمانته في أموال المسلمين، حيث قال:

«وَاللهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً، أَوْ أُجَرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً[2]، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمـاً لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَغَاصِباً لِشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ، وَكَيْفَ أَظْلِمُ أَحَداً لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبِلَى قُفُولُهَا وَيَطُولُ فِي الثَّرَى حُلُولُهَا[3] وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَقِيلًا وَقَدْ أَمْلَقَ حَتَّى اسْتَمَاحَنِي مِنْ بُرِّكُمْ

(١) فدك في التاريخ ـ السيد محمد باقر الصدر.

(٢) كأنّه يريد من الحسك الشوك، والسعدان نبت ترعاه الإبل له شوك تشبه به حلمة الثدي، والمسهد من سهده إذا أسهره. والمصفد: المقيّد.

(٣) يريد من النفس نفسه صلوات الله عليه، أي كيف أظلم لأجل منفعة نفس يسرع إلى الفناء رجوعها. والثرى التراب.

صَاعاً[1]، وَرَأَيْتُ صِبْيَانَهُ شُعْثَ الشُّعُورِ غُبْرَ الْأَلْوَانِ مِنْ فَقْرِهِمْ كَأَنَّمَا سُوِّدَتْ وُجُوهُهُمْ بِالْعِظْلِمِ[2]، وَعَاوَدَنِي مُؤَكِّداً وَكَرَّرَ عَلَيَّ الْقَوْلَ مُرَدِّداً، فَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ سَمْعِي فَظَنَّ أَنِّي أَبِيعُهُ دِينِي وَأَتَّبِعُ قِيَادَهُ[3] مُفَارِقاً طَرِيقَتِي، فَأَحْمَيْتُ لَهُ حَدِيدَةً ثُمَّ أَدْنَيْتُهَا مِنْ جِسْمِهِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا فَضَجَّ ضَجِيجَ ذِي دَنَفٍ مِنْ أَلَمِهَا، وَكَادَ أَنْ يَحْتَرِقَ مِنْ مِيسَمِهَا[4]، فَقُلْتُ لَهُ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ يَا عَقِيلُ، أَتَئِنُّ مِنْ حَدِيدَةٍ أَحْمَاهَا إِنْسَانُهَا لِلَعِبِهِ وَتَجُرُّنِي إِلَى نَارٍ سَجَرَهَا جَبَّارُهَا لِغَضَبِهِ، أَتَئِنُّ مِنَ الْأَذَى وَلَا أَئِنُّ مِنْ لَظًى؟»[5]

ومن هذه الخطبة أيضا في وصف حاله مع من أراد رشوته -وقيل هو الأشعث-: «**وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ طَارِقٌ طَرَقَنَا بِمَلْفُوفَةٍ فِي وِعَائِهَا وَمَعْجُونَةٍ شَنِئْتُهَا كَأَنَّمَا عُجِنَتْ بِرِيقِ حَيَّةٍ أَوْ قَيْئِهَا، فَقُلْتُ: أَصِلَةٌ أَمْ زَكَاةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ[6]**.

(١) عقيل أخوه. وأملق: افتقر أشد الفقر. واستماحني: استعطاني. والبر القمح.
(٢) شعث جمع أشعث وهو من الشعر المتلبد بالوسخ. والغُبر -بضم الغين-: جمع أغبر متغير اللون شاحبه. والعِظْلِم -كزبرج- سواد يصبغ به قيل هو النيلج أي النيلة.
(٣) القياد: ما يقاد به كالزمام.
(٤) الدَنَف -بالتحريك- المرض. والمِيسَم - بكسر الميم وفتح السين - المكواة.
(٥) ثكل - كفرح - أصاب ثكلًا بالضم وهو فقدان الحبيب أو خاص بالولد. والثواكل النساء، دعاء عليه بالموت لتألّمه من نار ضعيفة الحرارة وطلبه عملاً وهو تناول شيء من بيت المال زيادة عن المفروض له يوجب الوقوع في نار سجّرها -أي أضرمها- الجبّار وهو الله للانتقام ممّن عصاه، ولظى اسم جهنم.
(٦) الملفوفة نوع من الحلواء أهداها إليه الاشعث بن قيس. وشنئتها أي كرهتها. والصلة العطية.

فَقَالَ: لَا ذَا وَلَا ذَاكَ وَلَكِنَّهَا هَدِيَّةٌ. فَقُلْتُ: هَبِلَتْكَ الْهَبُولُ أَعَنْ دِينِ اللهِ أَتَيْتَنِي لِتَخْدَعَنِي[1]، أَمُخْتَبِطٌ أَنْتَ أَمْ ذُو جِنَّةٌ أَمْ تَهْجُرُ[2]؟ وَاللهِ لَوْ أُعْطِيتُ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ[3] مَا فَعَلْتُهُ، وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لَأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَةٍ فِي فَمِ جَرَادَةٍ تَقْضَمُهَا[4]، مَا لِعَلِيٍّ وَلِنَعِيمٍ يَفْنَى وَلَذَّةٍ لَا تَبْقَى؟ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ سُبَاتِ الْعَقْلِ وَقُبْحِ الزَّلَلِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ[5]».[6]

هكذا يصل تحرّز الإمام عليه السلام من المال العام، الذي كان الخلفاء يصلون به عوائلهم، ويحقّقون به مصالحهم، ويتوسّلون به ليعوّضوا به ما فاتهم من شرف النسب، وضعف المكانة الاجتماعية، من هنا جاءت المقولة المشهورة إنّه عليه السلام زان الخلافة بينما زانت هي الآخرين.

(١) هبلتك - بكسر الباء - ثكلتك والهبول - بفتح الهاء - المرأة لا يعيش لها ولد. عن دين الله متعلق بتخدعني.

(٢) أمختبط في رأسك فاختل نظام إدراكك، أم أصابك جنون، أم تهجر أي تهذو بما لا معنى له.

(٣) جلب الشعيرة بكسر الجيم - قشرتها. وأصل الجلب غطاء الرحل فتجوز في إطلاقه على غطاء الحبة.

(٤) قضمت الدابة الشعير - من باب علم -: كسرته بأطراف أسنانه.

(٥) سبات العقل نومه. والزلل: السقوط في الخطأ.

(٦) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢١٦ شرح الشيخ محمد عبده.

٢/ إنصاف المظلومين:

وكان عليه السلام كما لا يرضى أن يعصي الله، أو أن يلقاه بظلم أحد من العباد، كان كذلك لا يرضى أن يظلم عمّاله أحداً من الناس، فكان يتشدّد معهم ويعزلهم إذا بدرت منهم أيّ بادرة سوء أو شكا منهم أحد، فقد نقل ابن طيفور في بلاغات النساء هذه القصة عن محمد بن عبدالله؛ أنّ سودة بنت عمارة بن الأسك الهمدانية، استأذنت على معاوية بن أبي سفيان فأذن لها، وبعد محاورة طويلة بينهما شكت له بسر بن أرطأة قائلة: إنّك أصبحت للناس سيداً ولأمرهم متقلداً، والله سائلك من أمرنا وما افترض عليك من حقّنا، ولا يزال يقدم علينا من ينوء بعزّك ويبطش بسلطانك، فيحصدنا حصد السنبل ويدوسنا دوس البقر، ويسومنا الخسيسه ويسلبنا الجليلة، هذا بسر بن أرطاة قدم علينا من قبلك فقتل رجالي وأخذ مالي يقول لي: فوهي بما استعصم الله منه وألجأ إليه فيه، ولولا الطاعة لكان فينا عزٌّ ومنعة، فإمّا عزلته عنّا فشكرناك وإمّا لا فعرفناك.

فقال معاوية: أتهدّدينني بقومك؟ لقد هممت أن أحملك على قتب أشرس، فأردّك إليه ينفذ فيك حكمه.

فأطرقت تبكي، ثمّ أنشأت تقول:

صلّى الإله على جسم تضمّنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

قد حالف الحق لا يبقي به بدلا فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال لها: ومن ذلك؟

قالت: عليُّ بن أبي طالب عليه السلام.

قال:وما صنع بك حتى صار عندك كذلك؟

قالت: قدمت عليه في رجل ولّاه صدقتنا، قدم علينا من قبله، فكان بيني وبينه ما بين الغثّ والسمين، فأتيت علياً عليه السلام لأشكو إليه ما صنع، فوجدته قائماً يصلّي، فلمّا نظر إليّ انفتل من صلاته، ثمّ قال لي برأفة وتعطّف: ألك حاجة؟ فأخبرته الخبر فبكى، ثمّ قال:اللهم إنّك أنت الشاهد عليّ وعليهم، إنّي لم آمرهم بظلم خلقك، ولا بترك حقّك.

ثمّ أخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الجواب فكتب فيها: «**بسم الله الرحمن الرحيم، قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين، وما أنا عليكم بحفيظ، إذا قرأت كتابي فاحتفظ بما في يديك من عملنا**

حتى يقدم عليك من يقبضه منك، والسلام».

فأخذته منه، والله ما ختمه بطين ولا خزمه بخزام فقرأته.

فقال لها معاوية: لقد لمظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئاً ما تفطمون.

وقولها: ما ختمه بطين ولا خزمه بخزام، إشارة إلى أنّه لم يخبّئ عنها الأمر كما يفعلون بحجّة الرسميات، وقول معاوية: لمظكم يعني أذاقكم، وهو ديدن ابن أبي طالب عليه السلام، لا تخافه رعيته، **«أَصْبَحَتِ الْأُمَمُ تَخَافُ ظُلْمَ رُعَاتِهَا وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي»**[1].

فلم تكن هناك درة تنزل على ظهر الشاكين، ولا تهدد الشهود؛ كما كان يفعل عمر بن الخطاب في قصصه المشهورة؛ مثل قصة رمي واليه المغيرة بن شعبة بالزنا، حيث روّع الشهود وأثّر على زياد ابن أبيه حتّى يبدّل شهادته، وإلى غيرها من القصص التي تحكى عن درته التي كانت النساء تملص أجنتها خوفاً منها[2].

٣/ الامتناع عن التعدي والبغي:

ضرب عليٌّ عليه السلام نموذجا في سياسته مع الرعية، فهو لم يكن

(١) شرح نهج البلاغة صبحي الصالح ١٤١.
(٢) راجع كتاب الغدير الجزء السادس باب الأثر في علم عمر.

يعتدي عليها أو يهدّدها؛ شأن الذين حكموا قبله أو بعده، بل أتاح لهم مساحة من الحرية، بحيث لم يجبر مَن امتنع عن بيعته على البيعة، فمن المعروف أنّ جماعة من الصحابة امتنعوا عن بيعة علي عليه السلام لأمور لا تخفى على الباحث، منهم عبدالله بن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن ثابت الذي كان عثمانياً، وقد كان الخلفاء قبله يجبرون الناس على البيعة، ويهدّدون المخالفين بالقتل والحرق، كما فعل أبو بكر وعمر مع مَن امتنعوا عن البيعة و تحصّنوا ببيت الزهراء عليها السلام.[1]

يتضح موقفه عليه السلام وتحرّزه من البغي والعدوان أكثر في موقفه تجاه طلحة والزبير الذين بايعاه، ثمّ استأذنا للعمرة كما يأتيك تفصيله، وهو يعلم أنّ نيتهما نكث البيعة والخروج عليه، وقد اقترح عليه بعض أصحابه أن يحبسهما في المدينة ويضعهما في الأغلال، ولكنه رفض كلّ ذلك استجابة لإيمانه ومبادئه.

فهو عليه السلام كان يكره الظلم أشد الكراهية، وقد أوصى شبليه الحسن والحسين عليهما السلام عندما ضربه ابن ملجم أن يكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً، وقد روي عنه عليه السلام أنّه قال: «**إِذَا حَدَتْكَ اَلْقُدْرَةُ عَلَى ظُلْمِ اَلنَّاسِ فَاذْكُرْ قُدْرَةَ اَللهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عُقُوبَتِكَ**

(١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٣٤.

وَذَهَابَ مَا أَتَيْتَ إِلَيْهِمْ عَنْهُمْ وَبَقَاءَهُ عَلَيْكَ»[1]. وقال: «**أُذْكُرْ عِنْدَ اَلظُّلْمِ عَدْلَ اَللهِ فِيكَ، وَعِنْدَ اَلْقُدْرَةِ قُدْرَةَ اَللهِ عَلَيْكَ**»[2].

وكانت أغلب وصاياه لعمّاله تحثّهم على محاربة الظلم، فمنها ما جاء في وصيّته لمالك الأشتر حين ولّاه مصر حيث قال: «**وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ**[3]**؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، تَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ**[4]**، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ**»[5].

ويقول: «**وَإِذَا أَعْجَبَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ فَحَدَثَتْ لَكَ بِهِ أُبَّهَةٌ أَوْ مَخِيلَةٌ**[6]**، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ**[7]**،**

(١) غرر الحكم، ص ٢٨٩.
(٢) غرر الحكم، ص٧٧.
(٣) . الضاري من الكلاب: ما لهج بالصيد و تعوّد بأكله وأولع به.
(٤) تفرط: تسبق. والزلل: الخطأ. وأراد بالعلل الأمور الصارفة لهم عمّا ينبغي من إجراء أوامر الوالي على وجوهها.
(٥) نهج البلاغة، رسائل الإمام علي عليه السلام، رسالة ٥٣، ج ٣، ص ٨٤.
(٦) الأُبَّهَة -بضم الهمزة وفتح الباء مشدّدة و سكونها-: العظمة والكبرياء. والمخيلة: الكبر والعجب.
(٧) يطامن أي يخفض ويسكن. والطماح: الفخر والنشوز والجماح. وارتفاع البصر والغرب: الحدة. ويفيء أي يرجع ما غاب عن عقلك.

وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ مَا عَزَبَ مِنْ عَقْلِك»[1].

ويضرب الإمام عليه السلام في تعامله مع قاتله أروع الأمثلة، فقد كان يتنبّأ بأنّه سيتعرّض لعملية اغتيال على يد ابن ملجم، وكانّ كلّما رآه يقول:

أُريــدُ حياتَــه وَيُريــدُ قَتــلِي عَذيرَك مِن خَليلِك مِن مُراد[2]

وقد صرّح لبعض أصحابه بأنّه يتوقع أن يغتاله ابن ملجم، فقيل له: يا أمير المؤمنين دعنا نقتله.

فقال: «**أترون أن أقتل رجلاً لم يصنع بي شيئاً؟**»[3]

فهو لا يأخذ بالظنّة والتهمة كما يفعل غيره من الحكام، وحتّى بعد أن ضربه ابن ملجم بسيف مسموم في محراب عبادته، جيء له بابن ملجم فنظر له في وجهه ملياً، ثمّ قال وكأنه عليه السلام يذكّره بماضي عطاياه له: أبئس الإمام كنت لك؟

فقال المرادي الذي كان مدفوعا في عمله بحقد الخوارج وغرام قطام: أفأنت تنقذ من في النار، يا علي؟

فأمر الإمام أن يؤخذ معه إلى داره، وأوصى به خيراً فقال: أطيبوا طعامه، وألينوا فراشه.

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ٨٥.
(٢) الاستيعاب ج٣، ص ١٢٧.
(٣) الطبقات الكبرى ج٣، ص ٣٤.

وكان عليه السلام كلّما شرب اللبن الذي أوصى به الطبيب لدفع السم، يبقي منه نصفه ويقول لولده: أطعموه أسيركم. ويقصد ابن ملجم.

وأوصى عشيرته بقوله: «**يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا، تَقُولُونَ قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي، انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ**»[1].

وتعامله مع الخوارج أعظم مثال على عدم تعدّيه على الآخرين، فهم كانوا يعيشون تحت ظلّ حكمه في الكوفة، ويجادلونه في كلّ كبيرة وصغيرة، ولا يخفون معصيته، مع أنّه كان صاحب السلطة والخلافة، ومع ذلك لم يقاتلهم أو يضيّق عليهم حتى خرجوا عليه بالسيف، فاستحقوا القتال لفسادهم في الأرض حين ذاك.

وقد نقل لنا التاريخ جدالهم معه، ومعارضتهم له.ففي تاريخ الطبري عن كثير بن بهز الحضرمي: قام علي في الناس يخطبهم ذات يوم، فقال رجل -من جانب المسجد -:لا حكم

(١) شرح نهج البلاغة صبحي الصالح ص ٤٢١، وصية الإمام لولديه الحسن والحسين عندما ضربه ابن ملجم.

إلّا لله. فقام آخر فقال مثل ذلك، ثمّ توالى عدّة رجال يحكمون. فقال علي: «**الله أكبر، كلمة حق يلتمس بها باطل! أَمَا إنّ لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه، ولا نمنعكم الفيء مادامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا**».

ثمّ رجع إلى مكانه الذي كان فيه من خطبته[1]. وفي دعائم الإسلام زاد: «**وأشهد لقد أخبرني النبي الصادق عن الروح الأمين عن ربّ العالمين أنّه لا يخرج علينا منكم فرقة، قلّت أو كثرت إلى يوم القيامة، إلّا جعل الله حتفها على أيدينا، وأنّ أفضل الجهاد جهادكم، وأفضل الشهداء مَن قتلتموه، وأفضل المجاهدين مَن قتلكم، فاعملوا ما أنتم عاملون، فيوم القيامة يخسر المبطلون، و﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾**[2]»[3]. وخطب [علي عليه السلام] بالكوفة فقام رجل من الخوارج فقال: لا حكم إلّا لله. فسكت علي، ثمّ قام آخر وآخر، فلمّا أكثروا عليه قال: «**كلمة حق يراد بها باطل، لكم عندنا ثلاث خصال: لا نمنعكم مساجد الله أن تصلّوا فيها، ولا نمنعكم الفيء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نبدؤكم بحرب حتّى تبدؤونا به**». وهذه الكلمات تبيّن حقوق المعارضة، فلم يمنعهم أمير

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٧٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: (٦٧).
(٣) دعائم الإسلام في معرفة الحلال والحرام ١ ص ٢٩٣.

المؤمنين عليه السلام الفيء كما فعل غيره واستخدمه كسلاح لكبح جماح أيّ نوع من المعارضة.

وممّا يروى في هذا الخصوص أيضاً قصة الإمام مع ابن الكواء، حيث كان الإمام عليه السلام في صلاة الصبح، فقرأ ابن الكواء -وكان من الخوارج-: ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[1] معرّضاً بالإمام، حيث رماه الخوارج بالشرك لقبوله التحكيم، فأنصت علي عليه السلام لقراءة القرآن اتباعاً لقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا**﴾[2] حتّى فرغ ابن الكواء من الآية، ثمّ عاد ابن الكواء في قراءتها، فأنصت الإمام أيضاً، ثمّ قرأ الإمام فأعاد ابن الكواء المرة الثالثة فأنصت علي عليه السلام ثمّ قرأ ﴿**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ**﴾[3]. ثمّ أتمّ السورة وركع.[4]

وحينما أراد أصحاب الإمام قتال الخوارج بادئ الأمر أبى الإمام عليه السلام عليهم ذلك وقال: «**إن سكتوا تركناهم، وإن تكلّموا حاججناهم، وإن أفسدوا قاتلناهم**»[5].

(١) سورة الزمر، الآية: (٦٥).
(٢) سورة الأعراف، الآية: (٢٠٤).
(٣) سورة الرّوم، الآية: (٦٠).
(٤) أخلاقيات أمير المؤمنين عليه السلام السيد هادي المدرسي، وانظر أصل الرواية عن الإمام الصادق ع في تفسير القمي ج ٢ ص ١٦٠.
(٥) السبيل إلى إنهاض المسلمين ص ٤٥٣.

هكذا كان يتعامل مع المعارضين، ومَن يطلع على سيرة السابقين في التعامل معهم ابتداءً من الخليفة الأول ومروراً بالثاني والثالث[1]، ثمّ يقارنها مع سياسته عليه السلام يجد أنّ العدل كان حاضراً كقيمة أساسية ترسم سياسته تجاه رعيّته عموماً، سواء كانوا من الموالين له أو المعارضين، ولا يختلف تعامله معهم، فهم عنده كأسنان المشط، إلّا أن يقرّب أحد على مقاييس دينية، كالمجاهدين في سبيل الله والمتقين، فالمحسن ليس كالمسيء كما صرّح هو في عهده للأشتر.

٤/ الامتناع عن التكبّر:

إنّ أُبّهة السلطان من جهة، ومديح المتزلّفين من جهة أخرى تزيّنان للحاكمين الكبر، وقد يدفعهم ذلك إلى التصور أنّهم فعلاً أكبر من الناس وأنّ لهم قدرات إلهية، ولكن الإمام علي عليه السلام كحاكم لم يختلف عنه كرجل من عامّة المسلمين، غير أنّه أتقاهم وأعرفهم بربّه، يشعرك بذلك الرصد التاريخي لسلوكه وكلماته التي يرسلها لولاته، ففي عهده لمالك الأشتر: «**إيَّاك ومُسَامَاةَ الله**

(١) انظر لتعامل أصحاب السقيفة مع من عارض خلافة أبو بكر ومطالبة عمر بقتل ابن عبادة لرفضه البيعة، والتي ربما وجدت استجابة لولا وقوف ابنه في وجهه ووجه هذه الدعوة، وقد روا أنّ الجن اغتالته.
واقرأ عن مالك بن نويرة وقصة قتله والنزو على زوجته، وكانت من أجمل النساء، وما وقع من عثمان في التنكيل بالمعارضين وتسييرهم، انظر قصة أبو ذر الغفاري وعبدالله مسعود في تاريخ الطبري في أحداث خلافة عثمان.

فِي عَظَمَتِهِ، والتَّشَبُّهَ به فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ الله يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ، ويُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ». «إِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ[1]**، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِ»**[2].

وقد مرّ عليه السلام في طريقه إلى الشام بدهّاقين الأنبار، فترجّلوا له واشتدوا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ: مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ؟ قَالُوا: خُلُقٌ مِنَّا نُعَظِّمُ بِهِ أُمَرَاءَنَا. فَقَالَ: «**وَاللهِ مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أُمَرَاؤُكُمْ، وَإِنَّكُمْ لَتَشُقُّونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَتَشْقَوْنَ بِهِ فِي آخِرَتِكُمْ، وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ، وَمَا أَرْبَحَ الرَّاحَةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ**».[3]

وعندما سار معه حرب بن شرحبيل الشبامي -وكان من وجوه القوم- وهو راكب قال له عليه السلام: «**ارْجِعْ فَإِنَ مَشْيَ مِثْلِكَ فِتْنَةٌ لِلْوَالِي وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**»[4].

لأنّ هذا العمل عندما يحدث من وجوه القوم ينفخ في الحاكم روح الكبر، وقد تكرّر منه هذا القول أكثر من مرّة، فعن المحاسن خَرَجَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُوَ رَاكِبٌ فَمَشَوْا مَعَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: **لَكُمْ حَاجَةٌ؟** فَقَالُوا: لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،

(١) الإطراء: المبالغة في المدح والثناء. الفرص: جمع الفُرصة- بالضم-: الوقت المناسب للوصول إلى المقصد.
(٢) نهج البلاغة عهد الإمام لمالك الأشتر عندما ولاه مصر.
(٣) مناقب آل أبي طالب ابن شهر آشوب ج ٢ ص ١٠٥.
(٤) وقعة صفين نصر بن مزاحم ص ٥٣٢.

وَلَكِنَّا نُحِبُّ أَنْ نَمْشِيَ مَعَكَ. فَقَالَ لَهُمْ: **انْصَرِفُوا فَإِنَّ مَشْيَ الْمَاشِي مَعَ الرَّاكِبِ مَفْسَدَةٌ لِلرَّاكِبِ وَمَذَلَّةٌ لِلْمَاشِي.**

وَرَكِبَ مَرَّةً أُخْرَى فَمَشَوْا خَلْفَهُ فَقَالَ: **انْصَرِفُوا فَإِنَّ خَفْقَ النِّعَالِ خَلْفَ أَعْقَابِ الرِّجَالِ مَفْسَدَةٌ لِقُلُوبِ النَّوْكَى**[١].

وقد مرّ عليك وصف ضمرة له حيث قال: «**كَانَ وَاللهِ مَعَنَا كَأَحَدِنَا؛ يُدْنِينَا إِذَا أَتَيْنَاهُ، وَيُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ، وَكَانَ مَعَ دُنُوِّهِ لَنَا وَقُرْبِهِ مِنَّا لَا نُكَلِّمُهُ هَيْبَةً لَهُ، فَإِنْ تَبَسَّمَ فَعَنْ مِثْلِ اللُّؤْلُؤِ النَّظِيمِ، يُعَظِّمُ أَهْلَ الدِّينِ وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ، لَا يَطْمَعُ الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ وَلَا يَيْأَسُ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ**».

ولم يكن يحبّ الثناء و الإطراء، وكان تواضعه نابعاً من إيمانه، ففي خطبة طويلة له يفصّل فيها حقوق الرعية وحقوق الوالي يشير في ضمنها إلى ذلك بقوله: «**إِنَّ مِنْ حَقِّ مَنْ عَظُمَ جَلَالُ اللهِ فِي نَفْسِهِ وَجَلَّ مَوْضِعُهُ مِنْ قَلْبِهِ أَنْ يَصْغُرَ عِنْدَهُ لِعِظَمِ ذَلِكَ كُلُّ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَلَطُفَ إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَمْ تَعْظُمْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا زَادَ حَقُّ اللهِ عَلَيْهِ عِظَماً، وَإِنَّ مِنْ أَسْخَفِ حَالَاتِ الْوُلَاةِ عِنْدَ صَالِحِ النَّاسِ**[٢] **أَنْ**

(١) محاسن البرقي/ أحمد بن محمد بن الخالد البرقي ج ٢ ص ٦٢٩ والنوكى الحمقى.

(٢) السخف: رقة العيش و رقة العقل و السخافة رقة كل شيء أي أضعف أحوال الولاة عند الرعية أن يكونوا متهمين عندهم بهذا الخصلة المذمومة. (آت).

يُظَنَّ بِهِمْ حُبُّ الْفَخْرِ وَيُوضَعَ أَمْرُهُمْ عَلَى الْكِبْرِ، وَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الْإِطْرَاءَ[1] وَاسْتِمَاعَ الثَّنَا، وَلَسْتُ بِحَمْدِ اللهِ كَذَلِكَ، وَلَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطاً لِلَّهِ سُبْحَانَهُ[2] عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَرُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ[3] الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلَاءِ، فَلَا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ، لِإِخْرَاجِي نَفْسِي إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ[4] مِنَ الْبَقِيَّةِ فِي حُقُوقٍ لَمْ أَفْرُغْ مِنْ أَدَائِهَا، وَفَرَائِضَ لَا بُدَّ مِنْ إِمْضَائِهَا، فَلَا تُكَلِّمُونِي بِمَا تُكَلَّمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَلَا تَتَحَفَّظُوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْبَادِرَةِ[5]، وَلَا تُخَالِطُونِي بِالْمُصَانَعَةِ، وَلَا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالاً فِي

(١) جال- بالجيم- من الجولان- بالواو-. و الإطراء: مجاوزة الحدّ في الثناء.

(٢) أي تواضعاً له تعالى. والتناهي: قبول النهي، والضمير في« له» راجع إلى اللّه تعالى وفي النهج كما في النسخ المشهورة.(آت).

(٣) يقال: استحلاه أي وجده حلواً، قال ابن ميثم رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا يجرى مجرى تمهيد العذر لمن أثنى عليه، فكأنّه يقول: وأنت معذور في ذلك حيث رأيتني أجاهد في الله وأحث الناس على ذلك، ومن عادة الناس أن يستهل الثناء عند أن يبلو بلاءً حسناً في جهاد أو غيره من سائر الطاعات، ثمّ أجاب أنّ هذا العذر في نفسه بقوله:«**ولا تثنوا عليَّ بجميل ثناء**» أي لا تثنوا عليَّ لأجل ما ترونه منّي من طاعة الله فإنّ ذلك إنّما هو إخراج لنفسي إلى الله من حقوقه الباقية عليَّ لم أفرغ بعد من أدائها، وهي حقوق نعمه و فرائضه التي لا بدّ من المضي فيها، وكذلك إليكم من الحقوق التي أوجبها الله عليَّ من النصيحة في الدين و الإرشاد إلى الطريق الأفضل و التعليم لكيفية سلوكه.

(٤) أي لاعترافي بين يدي الله وبمحضر منكم، أنّ عليَّ حقوقاً في ولايتكم ورياستي عليكم لم أقم بها بعد وأرجو من الله القيام بها).

(٥) **أهل البادرة**: الملوك والسلاطين. **والبادرة**: الحدة والكلام الذي يسبق من الإنسان في الغضب، أي لا تُثنوا عليَّ كما يُثنى على أهل الحدة من الملوك خوفاً من سطوتهم، أو لا تحتشموا منّي كما يُحتشم من السلاطين والأمراء كترك المسارة والحديث إجلالاً وخوفاً منهم وترك مشاورتهم أو إعلامهم ببعض الأمور والقيام بين أيديهم، والمصانعة: الرشوة والمداراة.

حَقٍّ قِيلَ لِي وَلَا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي لِمَا لَا يَصْلُحُ لِي، فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ، فَلَا تَكُفُّوا عَنِّي مَقَالَةً بِحَقٍّ أَوْ مَشُورَةً بِعَدْلٍ».[1]

وكلماته عليه السلام تعكس سلوكه وليست فقاعات في الهواء، وقد علّق جورج جرداق على تعليماته عليه السلام وخطبه ووصاياه بقوله: (إنّ ابن أبي طالب لم يكن ينفذ تعاليمه وأوامره بنفسه ليكون قدوة لغيره شأن الكثيرين من أصحاب التعاليم والأوامر، بل كان أسلوبه في ذلك أبسط وأعمق وأجلّ شأناً. كان يحيا فكرته بقلبه ودمه قبل أن تصبح فكرة مصوغة بألفاظ وتعابير، فإذا هي تنبثق عن حياته ومسلكه انبثاقاً طبيعياً صافياً لا يد فيه للصنعة، ولا عمل فيه لحمل النفس على ما لا تطيق، وهذه الحقيقة عنه هي التي تُبعِد الجفاف عن تعاليمه ودستوره، وتُكسبها حرارة وحناناً حتّى لكأنّها حديث الأب إلى ابنه أو مناجاة المرء لنفسه)[2].

٥/ الرفق في جمع الحقوق المالية:

وقد ضرب الإمام علي عليه السلام نموذجاً في الرفق في جمع الحقوق المالية، وخير مثال على ذلك وصيته لمتولّي الصدقات، ونجد من

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦. الكافي ج ٨ ص ٣٥٥-٣٥٦.
(٢) الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق، ج٢، ص٢٠٩.

خلال هذه الوصية أنّ اهتمامه تجاوز الرفق بالإنسان إلى الرفق بالحيوان، كما أنّه لم يقتصر على كبار الأمور دون صغارها، ومن له أقلّ معرفة بالفترة التي عاشها، والحروب التي خاضها عليه السلام ليستعجب من هذه القدرة على الاهتمام بتفاصيل العمل الإداري، كأنّما أراد عليه السلام أن يأصّل للدولة الإسلامية بتشعباتها المختلفة، وقد أورد الشريف الرضي رحمه الله في كتب أمير المؤمنين عليه السلام وصاياه لعمّال الصدقات وهي كالآتي: «**انْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، ولا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِمـًا، ولا تَجْتَازَنَ عَلَيْهِ كَارِهـًا، ولا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهِ فِي مَالِه، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ والْوَقَارِ حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ، فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، ولا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُول: عِبَادَ اللهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللهِ وخَلِيفَتُهُ لآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إلى وَلِيِّه؟ فَإِنْ قال قَائِلٌ: لا، فَلا تُرَاجِعْهُ، وإِنْ أَنْعَمَ لَك مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أو تُوعِدَهُ أو تَعْسِفَهُ أو تُرْهِقَهُ، فَخُذْ مَا أَعْطَاك مِنْ ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أو إِبِلٌ فَلا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِه، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَه، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ، ولا عَنِيفٍ بِه، ولا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً ولا تُفْزِعَنَّهَا وَتَسُوأَنَّ صَاحِبَهَا**

فيها، واصْدَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ فَإِذَا اخْتَارَ فَلا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ، ثُمَّ اصْدَعِ الْبَاقِي صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ، فَلا تَزَالُ كَذَلِك حَتَّى يَبْقَى مَا فيه وَفَاءٌ لِحَقِّ الله في مَالِه فَاقْبِضْ حَقَّ الله مِنْهُ، فَإِنِ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ ثُمَّ اخْلِطْهُمَا، ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذي صَنَعْتَ أَوَّلًا حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ الله في مَالِه، ولا تَأْخُذَنَّ عَوْداً، ولا هَرِمَةً، ولا مَكْسُورَةً، ولا مَهْلُوسَةً، ولا ذَاتَ عَوَارٍ، ولا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّامَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ رَافِقًا بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوصِلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، ولا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحًا شَفِيقًا وأَمِينًا حَفِيظًا غَيْرَ مُعْنِفٍ ولا مُجْحِفٍ ولا مُلْغِبٍ ولا مُتْعِبٍ، ثُمَّ احْدُرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَك نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ الله بِه، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُك فَأَوْعِزْ إِلَيْه أَلّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وبَيْنَ فَصِيلِهَا، ولا يَمْصُرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِك بِوَلَدِهَا؛ ولا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوبًا، ولْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا في ذَلِك وبَيْنَهَا، ولْيُرَفِّهْ عَلَى اللاغِبِ، ولْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ والظَّالِعِ، ولْيُوِرِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ، ولا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطُّرُقِ، ولْيُرَوِّحْهَا في السَّاعَات، ولْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَاف والأَعْشَابِ، حَتَّى تَأْتِينَا بِإِذْنِ الله، بُدَّنًا مُنْقِيَاتٍ غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ ولا مَجْهُودَاتٍ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ الله وسُنَّةِ نَبِيِّه ﷺ،

فَإِنَ ذَلِك أَعْظَمُ لأَجْرِك وأَقْرَبُ لِرُشْدِك إِنْ شَاءَ اللهُ».[1]

ومن وصاياه لبعض عمّال الصدقة أيضا: «**أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ، وخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ حَيْثُ لا شَهِيدَ غَيْرُهُ، ولا وَكِيلَ دُونَهُ. وأَمَرَهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، ومَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وعَلانِيَتُهُ وفِعْلُهُ ومَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّى الأَمَانَةَ، وأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ**».

«**وأَمَرَهُ أَلا يَجْبَهَهُمْ، ولا يَعْضَهَهُمْ**[2]**، ولا يَرْغَبَ عَنْهُمْ، تَفَضُّلا بِالإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمُ الإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، والأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ، وإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا، وحَقًّا مَعْلُومًا، وشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ، وضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ، وإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ، وإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُومًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وبُؤْسَى لِمَنْ خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ الْفُقَرَاءُ والْمَسَاكِينُ والسَّائِلُونَ والْمَدْفُوعُونَ والْغَارِمُونَ وابْنُ السَّبِيلِ، ومَنِ اسْتَهَانَ بِالأَمَانَةِ ورَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ ولَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ ودِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ والْخِزْيَ فِي الدُّنيا، وهُوَ فِي**

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٢٥ وراجع: الكافي: ج ٣ ص ٥٣٦ ح ١، تهذيب الأحكام: ج ٤ ص ٩٦ ح ٢٧٤، المقنعة: ص ٢٥٥، الغارات: ج ١ ص ١٢٥ وج ٨ ص ١١٠، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٥٢٤، ح ٧١٧؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٥ ص ١٥١.

(٢) عَضهَهُ يعضَهُهُ: قال فيه ما لم يكن (لسان العرب ج ١٣ ص ٥١٥).

الآخِرَةِ أَذَلُّ وأَخْزَى، وإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الأُمَّةِ، وأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الأئِمَّةِ، والسَّلامُ».[1]

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٢٦، بحار الأنوار: ج ٣٣ ص ٥٢٨ ح ٧١٩ مع اختلاف يسير؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٥ ص ١٥٨ الرقم ٢٦ وفيه« شاهد» بدل« شهيد».

(ج) قيمة الحب

الحب، تجاوز الذات، يظلّ هدفاً وقيمة نسعى جميعاً لأن يكون لها نصيبٌ في سلوكنا؛ لأنّها نبع من الفضائل، قد يتحقق في حياتنا بدرجات متفاوتة؛ لا تفقده سحره الخلاب، وفتنته التي تشده الألباب، ويكدح الأدباء ليبدعوا من مخيّلتهم صوراً له، يدغدغون بها مشاعر الإنسانية، معبّرين عن آمال وأحلام وتطلعات، ولكن... ما هو الحب في قممه السامقة؟ هل هو هذه العواطف الجياشة النابعة من غريزة لا تتجاوز حدود الذات، وامتدادتها بنوة.. أبوة.. أخوة.. وتصوراتها للملكية، والحقوق؛...زوجية..؟

أم هو حالة من الوعي المفرط؛ تترسم مساراته وتنضبط بتجليات النور العقلي؛ الذي يضيء سبل الحياة، ويرسم غاياتها، ويكشف أبعادها، ويحدّد مآلاتها؟

الأوّل إنتاجه هذه الخيالات التي نشاهدها على شاشة سينما؛

تختفي بإضاءة الأنوار، وتخلّف صور باهتة لا تستقر أو ترسخ في الذهن؛ تمر كأطياف لحلم لا نتذكر أوّله عند الصباح، غير محرّك ولا لامس لعصب الحياة، محوره الذات وإنتاجها الضعيف من محرّكاتها الخربة التي لم تعرف أنواع الوقود الحديثة.

طاقتها مستمدّة من أخشاب ميّتة جافّة؛ جفاف حياة المادة، وإن شئت صورتها كظلال لأشجار معروقة، تختفي بتوسط الشمس لكبد السماء، لا يمكن أن تجير بشر من هجير الدنيا، ولظى الشمس المحرقة.

والثاني إنتاجه عطاء خالد يحتمل التغيّرات الجوية؛ لأنّه ذو قيمة لا تصدأ، تصمد أمام كلّ الشموس والظلال، وعوادي الزمان.

الأوّل.. لن يسمو أعلى من المادة، ولن يتجاوز ذراها؛ فهي فلكه ومحوره يدور معها حيث ما دارت.

الثاني.. نفحة من الملكوت، له صلابة معدن نابض مرن، ينبني بلبن الحقيقة المكشوفة بنور العقل، فهو ثابت لا يتغيّر بتغيّر الظروف والأحوال، وهو متماسك، مبهر، مدهش، يأخذ بلباب القلب، نشيد واله، طويل بطول التاريخ، عميق بعمق الحقائق، تزدهر به الخواطر والأفكار، ويضوع منه عرف هانئ كرائحة

المعاني إن كان لها رائحة، ويستعصي على الألفاظ ويلوذ بعيداً عنها متحرّراً من قبضتها، سابحاً في فضاء يتيح له أن يظل فضفاضاً غامضاً حلواً، صافياً قسياً مواسياً.

الأوّل ظلال تحجب الرؤيا وتحرف المسار.

والثاني بصائر ترفع الحجب.

الأوّل مطالب أرضية.

والثاني مبادئ سماوية.

الأوّل هو الدنيا.

والثاني هو الدين.

ألم يقل الإمام الباقر عليه السلام: «**وَهَلِ اَلدِّينُ إِلاَّ اَلْحُبُّ**»[1]؟

وعن الثاني نبحث في حياة ابن أبي طالب عليه السلام، والذي جسّد الحب نموذجاً تتكسّر أمواج الزمان على صخرة خلوده، كان قلباً عامراً بالحب الصميمي، أحبّ الله ورسوله، فَشَهِدا له بذلك على رؤوس الأشهاد.

ففي يوم خيبر عندما نكص مَن أُرسل بالراية من أصحاب النبي، ورجعوا يجبّن بعضهم بعضاً، قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**لأعطينّ**

(١) المحاسن، ج١، ص٢٦٢.

الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، كرار غير فرار».

فالحب لا يولّد إلّا الحب، وحبّ عليٍّ لله ورسوله لم يكن لقلقة لسان، بل كان متجسّداً في حياته، وفي حركاته وسكناته، عرف أنّ الحب عطاء فوهب نفسه كاملة لربّه، متبعاً أوامر رسوله، ألم يقل سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[1]؟

بات في فراش النبي صلى الله عليه وآله ليهاجر سرّاً إلى المدينة، ثمّ لحق به إلى المدينة بعد أن ردّ أماناته، وهنالك كان السيف الذي يضرب به رسول الله صلى الله عليه وآله أعداءه، وكما قالت الزهراء عليها السلام: «**كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ، أَوْ نَجَمَ قَرْنُ الشَّيْطَانِ، أَوْ فَغَرَتْ فَاغِرَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَذَفَ أَخَاهُ (علي) فِي لَهَوَاتِهَا فَلَا يَنْكَفِئ حَتَّى يَطَأَ جَنَاحَهَا بِأَخْمَصِهِ وَ يُخْمِدَ لَهَبَهَا بِسَيْفِهِ مَكْدُوداً فِي ذَاتِ اللَّهِ مُجْتَهِداً فِي أَمْرِ اللَّهِ قَرِيباً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ سَيِّداً فِي أَوْلِيَاءِ اللَّهِ مُشَمِّراً نَاصِحاً مُجِدّاً كَادِحاً لَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**».

هكذا كان علي عليه السلام، الثابت حين يفر الأصحاب، الذي ينادي

(١) سورة آل عمران، الآية: (٣١).

جبريل بين السماء والأرض مادحاً شجاعته وثباته، حين قال: «**لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي**»[1].

هذا البطل مجندل الفرسان هو مَن يقضي ليله متبتّلاً خاشعاً في محرابه، وهو الذي وصلت به معرفة الله وحبّه له أن يعبده لا طمعاً في جنّته ولا خوفاً من ناره، ولكن لأنّه وجده أهلاً للعبادة.

هذا هو الحب المبني على معايشة حقائق الإيمان، هذه البصيرة التي تولّد حبّ المؤمنين والعطف عليهم، حيث يأتي الحب في سلسلة متصلة لا تقاطع بينها: حب الله ورسوله وحب المؤمنين، وحب الأبناء وحب الزوجة، وحب الأعداء والرأفة بهم، فعندما يكون الحب نفحة ملكوتية ناتجة من تجلّي أسماء الله الحسنى في حياة الفرد، تتسع لتشمل الجميع، ولتصل ذرى لا يسعنا إلّا أن نقف أمامها محدقين، فهل نستطيع أن نصب حب علي عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوالب من المفاهيم المعقولة؟

فبعد ثلاثين عاماً من رحيله يقف علي عليه السلام ليذكر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على منبر الكوفة، فلا يملك أن يمسك دموعه من أن تبل لحيته، عرف ما لم يستطع معاصروه أن يعرفوه عن الرسول، فقد كان كما قال: «**وَلَقَدْ كُنْتُ أَتْبَعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ؛ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ**

(١) سيرة النبي ـ ابن هشام الحميري ج٣ ص ٦١٥.

عِلْمـًا مِنْ أَخْلَاقِهِ وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ...»[1]

وبعـد ثلاثـين عامـاً مـن فراقه للرسـول يجيـب مَن سـأله عن تركـه للخضـاب: الْخِضَـابُ زِينَـةٌ وَنَحْـنُ قَـوْمٌ فِي مُصِيبَـةٍ. يُرِيدُ وَفَـاةَ رَسُـولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم[2].

فعلي عليه السلام بوابة معرفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولن نعرف قيمة النبي إلّا من خلاله، فكلماته في رسائله وخطبه ناطقة بحبٍّ نعجز عن إدراكه ومعرفة كنهه، فهو سرٌّ من الأسرار الكثيرة المحيطة بشخص ابن أبي طالب عليه السلام الذي جمع الأضداد.

حبّ علي عليه السلام لأصحابه وللمؤمنين:

حب الله وحب رسوله ينسكب بصورة طبيعية ليشمل مفردات الحياة الرسالية التي عاشها ابن أبي طالب ليسع حبه جميع المؤمنين، فهو كحاكم لا يجعل من قاتلوا معه جماجم يصعد عليها إلى سدّة الحكم، بل رفقاء درب وجهاد يحنّ لهم، ويذكّر بهم في كلّ لحظة، ويتلهّف شوقاً إليهم، وتخضب دموعه لحيته، فقد نقل نوف البكالي خطبة أمير المؤمنين التي سبقت وفاته، وجاء فيها: **«أَلَا إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلًا وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً،**

(١) نهج البلاغة شرح صبحي الصالح ص ٣٠٠.
(٢) المصدر ص ٥٥٨.

وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ اللهِ الْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا لَا يَبْقَى بِكَثِيرٍ مِنَ الْآخِرَةِ لَا يَفْنَى، مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بِصِفِّينَ أَلَّا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءً يُسِيغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ؟ قَدْ وَاللهِ لَقُوا اللهَ فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ وَأَحَلَّهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ، أَيْنَ إِخْوَانِيَ الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ، أَيْنَ عَمَّارٌ وَأَيْنَ ابْنُ التَّيِّهَانِ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ، وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بِرُءُوسِهِمْ إِلَى الْفَجَرَةِ؟ ثُمَّ ضَرَبَ عليه السلام بِيَدِهِ عَلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْكَرِيمَةِ فَأَطَالَ الْبُكَاءَ، ثُمَّ قَالَ عليه السلام أَوْهِ عَلَى إِخْوَانِيَ الَّذِينَ قَرَءُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيَوُا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوه»[1].

ويقول عليه السلام في موضع آخر: «أَيْنَ الْقَوْمُ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ، وَقَرَؤُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهِيجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلِهُوا وَلَهَ اللِّقَاحِ إِلَى أَوْلَادِهَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَغْمَادَهَا، وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا زَحْفًا وَصَفًّا صَفًّا، بَعْضٌ هَلَكَ وَبَعْضٌ نَجَا، لَا يُبَشَّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ وَلَا يُعَزَّوْنَ عَنِ الْمَوْتَى، مُرْهُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، خُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، ذُبُلُ الشِّفَاهِ مِنَ

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٠٩ شرح الشيخ محمد عبده.

الدُّعَاءِ، صُفْرُ الْأَلْوَانِ مِنَ السَّهَرِ، عَلَى وُجُوهِهِمْ غَبَرَةُ الْخَاشِعِينَ، أُولَئِكَ إِخْوَانِي الذَّاهِبُونَ فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَظْمَأَ إِلَيْهِمْ[(١)] وَنَعَضَّ الْأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ»[(٢)].

هكذا يكون الحديث عن الأحبّاء، هو بثُّ حزنٍ وشجنٍ مِن والهٍ مشتاقٍ لأحبّابه، وهكذا يؤبّن عليٌّ عليه السلام أصحابه ويبكيهم بدموع حارّة تذيب الصخر، وقد فعل ذلك عندما جاءه نعي مالك الأشتر، وكان من خيرة أصحابه عليه السلام، لذلك بكاه عليه السلام بالدمع الثخين، ففي كتاب الغارات: (عَنْ أَشْيَاخِ النَّخَعِ قَالُوا: دَخَلْنَا عَلَى عَلِيٍّ عليه السلام حِينَ بَلَغَهُ مَوْتُ الْأَشْتَرِ، فَجَعَلَ يَتَلَهَّفُ وَيَتَأَسَّفُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: **«لِلَّهِ دَرُّ مَالِكٍ، وَمَا مَالِكٌ؟ لَوْ كَانَ جَبَلًا لَكَانَ فِنْداً[(٣)]، وَلَوْ كَانَ حَجَراً لَكَانَ صَلْداً، أَمَا وَاللهِ لَيَهُدَّنَّ مَوْتُكَ عَالَمـاً وَلَيَفْرَعَنَّ[(٤)] عَالَمـاً، عَلَى مِثْلِ مَالِكٍ فَلْتَبْكِ الْبَوَاكِي، وَهَلْ مَوْجُودٌ كَمَالِكٍ؟»** فَقَالَ عَلْقَمَةُ بْنُ قَيْسٍ النَّخَعِيُ[(٥)]: فَمَا زَالَ عَلِيٌّ يَتَلَهَّفُ وَيَتَأَسَّفُ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ الْمُصَابُ بِهِ دُونَنَا، وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَيَّاما)[(٦)].

---

(١) نشتاق إليهم شوق العطشان إلى الماء.
(٢) شرح نهج البلاغة لصبحي الصالح، ص ١٧٨ الخطبة ١٢١.
(٣) الفِنْد -بكسر الفاء و سكون النون-: الجبل العظيم.
(٤) ظ« ليفرعن» ولعلّها« ليفرعننّ» أي يجعلهم فراعنة، وفي م« ليقرعنّ» وما في المتن ش.
(٥) علقمة بن قيس بن عبد الله النخعيّ الكوفّي، قال ابن حجر في تقريب التهذيب ج٢ ص٢١: «ثقةٌ ثبتٌ فقيهٌ عابد مات بعد الستين» وقيل: «بعد السبعين».
(٦) كتاب الغارات لإبراهيم بن محمد الثقفي ج ص ١ ص ١٧٠ الطبعة القديمة، و٢٥٦ الطبعة الجديدة، نهج البلاغة ج ٤ ص ١٠٣ شرح الشيخ محمد عبده.

وكذلك عندما جاءه نعي محمد بن أبي بكر، وكان ربيبه، فقد ضمّه عليه السلام إليه بعد أن تزوج من والدته أسماء بنت عميس، وولّاه مصر، وقُتل فيها ومُثّل بجثته؛ قال عندما جاء إليه خبر نعيه: «**إِنَ حُزْنَنَا عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ إِلَّا أَنَّهُمْ نَقَصُوا بَغِيضاً وَنَقَصْنَا حَبِيبا**»(١).

وفي رسالته إلى عبدالله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتُتِحَتْ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ قَدِ اسْتُشْهِدَ، فَعِنْدَ اللهِ نَحْتَسِبُهُ وَلَداً نَاصِحاً وَعَامِلًا كَادِحاً وَسَيْفاً قَاطِعاً وَرُكْناً دَافِعاً**».(٢) وفي كلمة أخرى له «**وَلَقَد كان إليَّ حَبِيباً، وَكانَ لِي رَبِيباً**»(٣).(٤)

فعليٌّ عليه السلام مجندل الفرسان صاحب قلب كبير وعاطفة جيّاشة، يبكي لفقد أحبته، فهل يعني الإيمان الخشونة والصلابة؟

كلا، فمحاولة تصوير خشونة عمر بن الخطاب -الذي تملص النساء خوفاً من شدّته- كوجه حقيقي للدين الإسلامي محاولة فاشلة، لأنّها تخالف كلّ المعاني الجميلة التي تزخر بها الحياة الإنسانية.

(١) المصدر ج ٤ ص ٧٧.
(٢) نهج البلاغة ج ٣ ص ٦٠ شرح الشيخ محمد عبده.
(٣) نهج البلاغة الخطبة ٦٨، أنساب الأشراف: ج ٣ ص ١٧٣ نحوه.
(٤) نهج البلاغة ج ١ ص ١١٧ شرح الشيخ محمد عبده.

نموذج علي نموذج الأضداد، هو النموذج الذي صاغه النبي محمّد ﷺ عنواناً للإنسانية، نموذج كما وصفه أحد الكتاب المسيحيين: (أمّا أقواله وأعماله فواحدة لا تتناقض ولا تتعارض، بل تنبع من معين واحد، كما تنبع المياه من الأرض، لا يتبدّل طعمها بين ليل ونهار، وهي لا تتجزّأ، ولا يفسّر بعضها إلّا ببعض)[1].

وهذه الثنائية العجيبة لم تغب عن بال كلّ مَن تتبّع حياة علي عليه السلام من مظّانها التاريخية ومن ميراثه البلاغي، فقد أشار إليه الفيلسوف الإنكليزي كارليل بقوله: (أمّا علي، فلا يسعنا إلّا أن نحبّه ونتعشقه، فإنّه فتى شريف القدر عالي النفس، يفيض وجدانه رحمة وبرّاً، ويتلظّى فؤاده نجدة وحماسة، وكان أشجع من ليث، ولكنّها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان)[2].

فضربة علي بالسيف، ودموعه التي تسيل من خشية الله، أو لذكر النبي ﷺ ولذكر أصحابه المؤمنين؛ ينبعان من مصدر واحد، وهو تجرّده عليه السلام للحقيقة ولله تعالى، وحينما يصبح الإنسان خالصا لله، فإنّه يكون للناس جميعاً، وحين يجرّد الإنسان نفسه عن كلّ رواسب المادة والجاهلية تتحوّل إلى حبٍّ خالص.

(١) علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق ج٢، ص٢٠٧.
(٢) علي صوت العدالة الإنسانية، جورج جرداق ج٥، ص٢٣٥-٢٣٦.

حبّه عليه السلام لأسرته:

ويتميّز هذا الحب ذو النفحة الملكوتية بوضوح في علاقته عليه السلام بزوجته؛ تلك الدرة المصونة، الحوراء الإنسية، التي اختص بها من دون البشر، فانساب بينهما حب عميق، نسجت أواصره وحدة المنبع والهدف. نَهَلَا معاً مِن منهل النبوة ومستودع الرسالة، ففي كنف نبي العظمة وتحت رعايته كانت نشأتهما، وبنور الوحي النازل عليه انكشف لهما الطريق وارتسم الهدف، فانصهرا في بوتقة الرسالة، وتبادلا الرعاية، يسمو بهما هدفهما المشترك، ليتلوا للعالم نشيد الخلود، ويخلّفا نبعاً من المودة لا ينضب يخفق به قلب كلّ مَن عرفهما.

كان علي عليه السلام يرعاها رعايته لوديعة من حبيب، وها هو يبكي كمداً عندما استردّت تلك الوديعة، وانقضت أيام الزهرة، وسحقت بأيدي الطغاة، فقد أضاء قلبه حبّها؛ كما أضاءه حب أبيها.. نور على نور.. فحبّه للنبي، وحبّ النبي لفاطمة، كانا كافيان لإشعال قلبه بالحب لها، وانتمائها للرسالة التي حمل ابن أبي طالب عبئها، أوصلا ذلك الحب إلى ذرى سامية تستعصي على الألفاظ، وها هو يشكو همّه ويبثّ حزنه عليها لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: **«السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ عَنِّي وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ**

وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ، قَلَّ يَا رَسُولَ اللهِ عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إِلَّا أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزٍّ، فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ، فَلَقَدِ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ، أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ، وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتَضَافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ، هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ وَلَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مُوَدِّعٍ لَا قَالٍ وَلَا سَئِمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَنْ مَلَالَةٍ، وَإِنْ أُقِمْ فَلَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ»(١).

هكذا عليٌّ عليه السلام يفيض الحب من جوانحه، والشيء الطبيعي أن يعمّ أبناءه خصوصاً من ينتمون إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ أي سلالة فاطمة عليها السلام، فهو ينادي في أصحابه أن يملكوا عنه الحسن والحسين عليهما السلام حينما رأى اندفاعهما في القتال في صفين، خوفاً من أن تخلو الأرض من سلالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا الحبّ يبدو بوضوح في وصيّته لابنه الحسن، تلك الوصية التي جمعت محاسن الحكمة، وتبدو محبّته وشفقته ظاهرة فيها للعيان؛ حيث يقول في مقدمتها:

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٨٢، شرح الشيخ محمد عبده.

«ووَجَدْتُك بَعضِي، بل وَجَدْتُك كُلِّي، حَتَّى كأنَ شَيْئًا لو أصابَك أصابَني، وكأنَّ الموت لوْ أتاك أتانِي، فَعَنانِي مِن أَمْرِكَ ما يَعْنِينِي من أمْر نَفسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ مُسْتَظهِراً[1] به إنْ أنَا بقيتُ لكَ أو فَنيتُ» وبعد أن يتقدّم في وصيته نجده يكرّر ذلك بقوله: **«رَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيق»**[2].

هذا الحبّ لا يطيش بأمير المؤمنين عليه السلام ولا يبعده عن الدين، بل هو في صلب الدين، حيث يهتم بالوصية بالتقوى والتأكيد عليها، وهكذا نجد ذلك أيضا في بكائه على الحسين عليه السلام حين مروره في مرجعه من صفين بكربلاء، فقد روى المؤرّخون أنّه وقف عندها وشمّ تربتها وبكى بكاءً شديداً، ونادى: صبراً أبا عبدالله بشط الفرات، ثمّ أومأ بيده إلى مكان فقال: ها هنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم، وأومأ إلى موضع آخر فقال: ها هنا مهراق دمائهم، فتية من آل محمد يقتلون بهذه العرصة تبكي عليهم السماء والأرض.[3]

(١) استظهر به أي استعان، (لسان العرب: ج ٤ ص ٥٢٥).
(٢) الكلمتان من وصيته لابنه الحسن عليه السلام: نهج البلاغة ج ٣ ص ٣٨.
(٣) انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٤، ص١٦٩، ورواه ابن حجر في الإصابة في ترجمة غرفة الأزدي، وانظر ذخائر العقبى ٩٧ وكتاب صفين لنصر بن مزاحم ١٤٢ شرح نهج البلاغة ج٢، ص٢٧٨.

تعامله عليه السلام مع أعدائه:

سيرة علي عليه السلام التي سجّلها التاريخ الإسلامي استنفذ جزء كبير منها حروبه التي خاضها بعد تولّيه للخلافة، ومن أراد أن يرصد تأثير القِيَم في حياة علي عليه السلام لا بدّ أن يمرّ على تلك السيرة التي خطاها في التعامل مع الأعداء، وهي سيرة اتبع فيها ابن عمّه ومربّيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وامتزجت فيها تقوى الإمام مع إيمانه العميق بالله سبحانه وتعالى وتوكّله عليه، وتجلّى ذلك في تمسّكه بمبادئه، وحبّه العميق لجميع الناس، وحرصه على هدايتهم وإنقاذهم من النار وسوقهم إلى الجنة.

فعندما طُلّبَ عليه السلام للخلافة بعد مقتل عثمان؛ كان يعلم أنّ الانحراف تجذّر في الأمّة الإسلاميّة وأصبح عميقاً، وأنّ التغيير يتطلّب جهداً كبيراً ورجالاً ثابتين، لذلك قال لهم:

«دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْراً لَهُ وُجُوهٌ وَأَلْوَانٌ، لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الْآفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ، وَاعْلَمُوا[1] أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَلَمْ أُصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتْبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ

(١) كذا في ا، ج، و في ب، و مخطوطة النهج «وأعلم».

وَلَيُّتُمُوهُ أَمْرَكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيراً خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيراً»[1].

هكذا كان كلامه عليه السلام برغم أنّه يرى نفسه، ويراه كثير من المسلمين مؤهّلاً للخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله، وأنّ النبي نصّ على خلافته، ولكنه أراد بهذه الكلمات أن يحمّل المبايعين المسؤولية، وحتى يتبيّنوا عواقب بيعتهم، ويتهيّؤوا لما ستكشف عنه الأيام من صعوبات.

عليٌّ عليه السلام والناكثون لبيعته:

من خلال التتبع التاريخي كانت هنالك غالبية من المسلمين تعلم عواقب تولّي علي عليه السلام للخلافة وتحذرها، وفي مقدمة هؤلاء قريش التي سعت جاهدة لتزوي عنه الخلافة، وبالخصوص عمر بن الخطاب الذي صرّح لابن عباس بذلك[2].

وقد أشار في مورد لمعرفته بأنّ علي عليه السلام سيحملهم على الطريق المستقيم، فقال:

(لو ولّوها الأجلح سلك بهم الطريق[3]، أو قال: لله درّهم

(١) نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبده، وقد نقل الطبري جزءاً من العبارة ووضعها في سياق بعيد عن مضمون الحدث في رواية عن سيف ابن عمر، كعادته في هذا الجزء من تاريخه حيث اعتمد في أكثره على رواية السري عن شعيب عن سيف.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ابن جرير الطبري ج ٢، ص ٥٧٨.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣، ص٣٤٢.

لو ولّوها الأصيلع كيف يحملهم على الحق وإن حمل السيف على عاتقه)[1]، مع هذا الإقرار منه اعتذر عن تولية علي عليه السلام بأنّه لا يريد أن يتحمّلها حياً وميتاً، مع ذكره أسماء لو حضرت لا تقارن مع علي عليه السلام، بل إنّ ما يميّزها انحرافها عنه عليه السلام، والكلام في ذلك يطول، فحسبك أن تعرف أنّ الفئة الحاكمة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد خطّت سياسات لم تكن لترضي علياً، ونشأت بسبب هذه السياسات طبقة من المسلمين ذات حظوة عند الحكام، لم يكن من السهولة أن تنقاد لأمير المؤمنين عليه السلام حين تولّيه الخلافة.

وقد مرّ عليك في فصل العدل، القرارات التي اتخذها عليه السلام أوّل ما تولّى الخلافة، والتي لم ترضِ طلحة والزبير، حيث تعوّدا على الأثرة، وتضاعفت أموالهما في الحكومات التي نشأت من السقيفة خصوصاً في حكومة عثمان، وقد قال عثمان:

(ويلي على ابن الحضرمية -يعني طلحة- أعطيته كذا وكذا بهاراً ذهباً وهو يروم دمي يحرض على نفسي، اللّهمّ لا تمتّعه به، ولقّه عواقب بغيه)[2].

وقد ذكر المؤرّخون عطاء عثمان لطلحة، جاء في أنساب الأشراف للبلاذري أنّه أعطاه مائتي ألف دينار[3]، وقد ذكر

(١) الكامل - عبدالله بن عدي ج ٥ ص ٣٧.
(٢) شرح نهج البلاغة ج ٩ ص ٣٥.
(٣) الأنساب للبلاذري ج٥ ص٧.

الطبري[1]، وصاحب تاريخ المدينة أنه أقطعه (النشاستج) التي قال عنها سعيد بن العاص: إنّ مَن له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً، والله لو أنّ لي مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً.

وسعيد من أقرباء عثمان الذين أغدق عليهم الأموال، ومع ذلك رأى أنّ النشاستج من الضخامة لتعيش جماعة كبيرة من الناس في رغد.

وقد ذكر المؤرّخون جملة ما تركه طلحة من الأموال؛ فذكر ابن سعد في طبقاته أنّ معاوية بن أبي سفيان سأل موسى بن طلحة كم ترك أبو محمد يرحمه الله من العين؟ قال: ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف درهم، ومائتي ألف دينار، كان يغل كلّ سنة من العراق مائة ألف سوى غلاته من السراة، وكان ماله قد اغتيل[2].

وقد روي أيضا عن إبراهيم بن محمد بن طلحة قال: كانت قيمة ما ترك طلحة بن عبيدالله من العقار والأموال وما ترك من الناضح ثلاثين ألف ألف درهم، وترك من العين ألفي ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار والباقي عروض.

وعن عمرو بن العاص أنّه ترك مائة بهار في كلّ بهار ثلاث

(١) الطبري ج٥ ص ١٣٩.
(٢) الطبقات الكبرى - محمد بن سعد ج ٣ ص ٢٢١.

قناطر ذهب، وسمعت أنّ البهار جلد ثور[1].

وقد قاربت ثروة الزبير مثل ذلك، فقد أعطاه عثمان وأجازه بستمائة ألف[2]، وكان له خطط[3] بمصر وبالكوفة، ودور بالبصرة، وكانت له غلّات تقدم عليه من أعراض المدينة.[4]

فمن عاش في ظلّ مثل هذا العطاء والتميّز لن تخضع نفوسهم للمساواة، وقد مرّ عليك تشكّيهم من مساواتهم مع الآخرين في العطاء، فلمّا لم يجدوا تمييزاً من الإمام علي عليه السلام -برغم محاولاتهم معه ليولّيهم على بعض الولايات- اعترضا عليه ولم ينقادا إليه وتحضّرا لنكث البيعة، فقد روى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة أنّ الزبير وطلحة أتيا علياً بعد فراغ البيعة، فقالا :هل تدري على ما بايعناك يا أمير المؤمنين؟ قال علي: نعم، على السمع والطاعة، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان، فقالا :لا، ولكنّا بايعناك على أنّا شريكاك في الأمر. قال علي :لا، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأود.

(١) الطبقات الكبرى -محمد بن سعد ج ٣ ص ٢٢١.
(٢) الطبقات الكبرى- محمد بن سعد ج ٣ ص ١٠٧.
(٣) الخطة: الأرض والدار يختطها الرجل في أرض غير مملوكة ليتحجرها ويبني فيا، وذلك إذا أذن السلطان لجماعة من المسلمين أن يتخطوا الدور في موضع بعينه، ويتخذوا فيه مساكن لهم، وجمع الخطة: خطط، (لسان العرب).
(٤) الطبقات الكبرى- محمد بن سعد ج ٣ ص ١١٠.

وكان الزبير لا يشك في ولاية العراق، وطلحة في اليمن، فلمّا استبان لهما أنّ علياً غير مولّيهما شيئا أظهرا الشكاة، فتكلّم الزبير في ملأ من قريش فقال :هذا جزاؤنا من علي، قمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذَنْب وسبّبنا له القتل، وهو جالس في بيته وكُفِي الأمر، فلمّا نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا. فقال طلحة: ما اللوم إلّا أنّا كنّا ثلاثة من أهل الشورى، كرهه أحدنا وبايعناه، وأعطيناه ما في أيدينا، ومنعنا ما في يده، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا.

فانتهى قولهما إلى علي فدعا عبدالله بن عباس -وكان استوزره- فقال له: بلغك قول هذين الرجلين؟ قال: نعم، بلغني قولهما. قال: فما ترى؟ قال: أرى أنّهما أحبّا الولاية؛ فولِّ البصرة الزبي، وولِّ طلحة الكوفة، فإنّهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عثمان. فضحك عليٌّ ثمّ قال: ويحك، إنّ العراقين بهما الرجال والأموال، ومتى تملّكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع، ويضربا الضعيف بالبلاء، ويقويا على القوي بالسلطان، ولو كنتُ مستعملاً أحدا لضرّه ونفعه لاستعملتُ معاوية على الشام، ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي.[1]

إذن ليست القِيَم الدينية هي التي كانت تحرّك القوم، ولكن

(١) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة الدينوري، تحقيق الشيري ج ١ ص ٧٠.

مطامع الرئاسة، وطلب العلو في الأرض، والمنّ على الله بدينهم وجهادهم في سبيله، كما نوّه الرسول ﷺ بقوله لعلي: «**إنّ القوم سيمنّون بدينهم على ربّهم، ويتمنّون رحمته، ويأمنون سطوته، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة والأهواء الساهية**».

فعندما فشلت محاولات طلحة والزبير رأيا أن يخرجا من المدينة، ليستعينا على علي عليه السلام، وكانت الخطوة الأولى أن يرحلا إلى مكّة ليلاقي هناك شنٌّ طَبَقَه، (فاستأذناه في العمرة، فقال: ما العمرة تريدان، فحلفا له بالله أنّهما ما يريدان غير العمرة، فقال لهما: ما العمرة تريدان، وإنّما تريدان الغدرة ونكث البيعة، فحلفا بالله ما الخلاف عليه ولا نكث بيعة يريدان، وما رأيهما غير العمرة. قال لهما: فأعيدا البيعة لي ثانية، فأعاداها بأشدّ ما يكون من الأيمان والمواثيق، فأذن لهما فأخذ منهما المواثيق على ذلك ثمّ تركهما يرحلان)[1].

وعندما وصلا إلى مّكة التقيا عائشة، التي كانت قد أقامت في مكّة كراهة الرجوع إلى المدينة بعد معرفتها أنّ الخلافة آلت لعلي عليه السلام، ورغم أنّ عائشة كانت من أشدّ الناس تأليباً على عثمان، ولكنّها كانت كذلك من أشدّ الناس بغضاً لعلي عليه السلام،

(١) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد المعتزلي ج ١ ص ٢٣٢.

فعندما علمت بتولّيه للخلافة بعد مقتل عثمان وهي في طريقها للمدينة، قالت لمن نقل لها الخبر -وهو ابن أم كلاب-: ليت أنّ هذه انطبقت على هذه، إنْ تمّ الأمر لصاحبك، ردّوني ردّوني، فرجعتْ قافلةً إلى مكّة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبنّ بدمه. فأجابها ابن أمّ كلاب: ولِمَ؟ فوالله إنّ أوّل من أمال حرفه لأنتِ، ولقد كنتِ تقولين اقتلوا نعثلاً فقد كفر! قالت: إنّهم استتابوه ثمّ قتلوه، وقد قلتُ وقالوا، وقولي الأخير خيرٌ مِن قولي الأوّل. فقال لها ابن أمّ كلاب:

مِنكِ البداءُ ومِنكِ الغَيَرْ ... ومِنكِ الرياح ومِنكِ المطرْ
وأنتِ أمرت بقتل الإمام ... وقلت لنا إنّه قد كفرْ
فَهَبْنَا أطعناك في قتله ... وقاتله عندنا مَن أمرْ
ولم يسقط السقف مِن فَوقنا ... ولم ينكسف شمسنا والقمرْ
وقد بايع الناس ذا تَدَرّإٍ ... يُزيل الشّبا ويُقيم الصَّعرْ
ويلبس للحرب أثوابها ... وما مَن وفى مِثْلَ مَن قد غَدَرْ

فانصرفت إلى مكّة فنزلت على باب المسجد فقصدت للحجر، فسُتِرتْ واجتمع إليها الناس فقالت: يا أيّها الناس، إنّ عثمان قتل

مظلوماً ووالله لأطلبنّ بدمه[1].

وقول ابن أمّ كلاب إشارة منه إلى القول الذي اشتهر عن عائشة: اقتلوا نعثلاً فقد كفر.

وكانت عائشة في طليعة مَن ألّبوا على عثمان، وقد أشار اليعقوبي لسبب خلافها مع عثمان أنّه نَقَصَها ممّا كان يعطيها عمر بن الخطاب، وصيّرها أسوة غيرها من نساء النبي، وهذا الموقف هو الذي شحن قلب عائشة على عثمان، فوجدت في سلوكه مطعناً ينفث عن غيظها، فكانت تدلي قميص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعثمان يخطب على المنبر وتنادي: يا معشر المسلمين! هذا جلباب رسول الله لم يبلَ وقد أَبْلَى عثمان سُنَّته.[2] وفي رواية أخرى أنّها أخرجت نعلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وعندما أرادت أن تخرج إلى مكّة جاءها مروان فقال لها: يا أمّ المؤمنين، لو قمت فأصلحتِ بين هذا الرجل وبين الناس؟ قالت: قد فرغتُ من جهازي، وأنا أريد الحج. قال: فيدفع إليك بكلّ درهم أنفقته درهمين، قالت: لعلّك ترى أنّي في شكٍّ من صاحبك؟ أَمَا والله لوددت أنّه مقطع في غرارة من غرائري، وأنّي أطيق حمله،

(١) تاريخ الطبري - الطبري ج ٣ ص ٤٧٦-٤٧٧.
(٢) تاريخ اليعقوبي ج٢، ص ١٧٥-١٧٦، الفتوح: وأضاف قولها: اقتلوا نعثلًا قتل الله نعثلاً.

فأطرحه في البحر[1].

وقد طالبتْ عائشة ابن عباس أن يُخذِّل عنه، وأن لا يمنع الناس منه، وكان عثمان قد ولّاه الحج في ذلك العام، فمرّ بعائشة في الصلصل فقالت: يابن عباس أنشدك الله، فإنّك قد أُعطيتَ لساناً إزعيلاً، أن تُخذِّل عن هذا الرجل وأن تشكّك فيه الناس؛ فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت، ورفعت لهم المنار، وتحلّبوا من البلدان لأمر قد جم، وقد رأيت طلحة ابن عبيدالله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح، فإنْ يَلِ يَسِرْ بسيرة ابن عمّه أبي بكر رضي الله عنه. قال: قلتُ: يا أمَّه لو حدث بالرجل حدثٌ ما فزع الناس إلّا إلى صاحبنا. فقالت: إيهاً عنك، إنّي لستُ أريد مكابرتك ولا مجادلتك[2].

وفي رواية البلاذري: إنّ الله قد آتاك عقلاً وفهماً وبياناً، فإيّاك أن تردّ الناس عن هذا الطاغية. وفي الفتوح: فإيّاك أن تردّ الناس عن قتل هذا الطاغي عثمان، فإنّي أعلم أنّه سيشأم قومه كما شأم أبو سفيان قومه يوم بدر[3].

هذا هو موقف أمّ المؤمنين عائشة من عثمان، ولكن هذا الموقف

(١) تاريخ اليعقوبي ج٢، ص ١٧٥-١٧٦.
(٢) تاريخ الطبري - الطبري ج ٣ ص ٤٣٤-٤٣٥.
(٣) الفتوح ج٢، ص٤٢٢ أنساب الأشراف ج٦، ص١٩٣.

تغيّر مائة وثمانين درجة بمجرد أن علمتْ بتولّي علي عليه السلام للخلافة، لتنادي بثارات عثمان، وقد ورد أنّها بعد أن علمت بمقتل عثمان لم تندم على التحريض على قتله؛ لأنّها كانت تظنّ أنّ الأمور تصفو لطلحة، وهو من قبيلتها قبيلة تيم، قال المدائني في كتاب الجمل كما نقل عنه أبو الحديد في شرح النهج: لمّا قُتِل عثمان كانت عائشة بمكّة، وبلغ قتله إليها وهي بشراف، فلم تشكّ في أنّ طلحة هو صاحب الأمر، وقالت: بُعداً لنعثلٍ وسحقاً! إيهٍ ذا الإصبع! إيهٍ أبا شبل! إيهٍ يابن عم! لكأنّي أنظر إلى إصبعه وهو يبايع له: حثّوا الإبل ودعدعوها. قال: وقد كان طلحة حين قُتل عثمان أخذ مفاتيح بيت المال، وأخذ نجائب كانت لعثمان في داره، ثمّ فسد أمره فدفعها إلى علي بن أبي طالب عليه السلام[1].

ورُوِي عن أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي[2] من كتابه: إنّ عائشة لمّا بلغها قتل عثمان وهى بمكّة، أقبلت مسرعة وهي تقول: إيهٍ ذا الإصبع! لله أبوك، أَمَا إنّهم وجدوا طلحة لها كفواً. فلما انتهت إلى شراف استقبلها عبيد بن أبي سلمة الليثي، فقالت له: ما عندك؟ قال: قُتل عثمان، قالت: ثمّ ماذا؟ قال: ثمّ حارت

(١) شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد ج ٦ ص ٢١٥:
(٢) روى عنه الطبري في كتابه تاريخ الأمم والملوك كثيراً.

بهم الأمور إلى خير محار، بايعوا عليّاً، فقالت: لوددت أنّ السماء انطبقت على الارض إن تمّ هذا، ويحك! انظر ما تقول! قال: هو ما قلتُ لك يا أمّ المؤمنين. فَوَلْوَلَتْ، فقال لها: ما شأنكِ يا أمّ المؤمنين؟ والله ما أعرف بين لابتيها أحداً أولى بها منه ولا أحق، ولا أرى له نظيراً في جميع حالاته، فلماذا تكرهين ولايته؟ فما ردّت عليه جواباً.

وقد رُوي من طرق مختلفه أنّ عائشة لمّا بلغها قتل عثمان وهى بمكّة قالت: أبعده الله! ذلك بما قدّمت يداه، وما الله بظلامٍ للعبيد. وقد روى قيس بن أبي حازم أنّه حج في العام الذي قُتل فيه عثمان وكان مع عائشة لمّا بلغها قتله، فتحمّل إلى المدينة، فسمعها تقول في بعض الطريق: إيهٍ ذا الإصبع! وإذا ذكرت عثمان قالت: أبعده الله! حتى أتاها خبر بيعة علي، فقالت: لوددتُ أنّ هذه وقعت على هذه، ثمّ أمرت بردّ ركائبها إلى مكّة فردّت معها، ورأيتها في سيرها إلى مكّة تخاطب نفسها كأنّها تخاطب أحداً: قتلوا ابن عفّان مظلوماً! فقلت لها: يا أمّ المؤمنين، ألم أسمعكِ آنفاً تقولين: أبعده الله، وقد رأيتك قبلُ أشدّ الناس عليه وأقبحهم فيه قولاً!

فقالت: لقد كان ذلك، ولكنّي نظرتُ في أمره فرأيتهم استتابوه،

حتّى إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائماً محرماً في شهر حرام فقتلوه.

ورُوي من طرق أخرى أنّها قالت لمّا بلغها قتله: أبعده الله! قتله ذنبه، وأقاده الله بعمله. يا معشر قريش لا يسومنّكم قتل عثمان، كما سام أحمر ثمود قومه، إنّ أحق الناس بهذا الأمر ذو الإصبع. فلمّا جاءت الأخبار ببيعة علي عليه السلام، قالت: تعسوا تعسوا! لا يردّون الأمر في تيم أبدا[1]. وروى البلاذري في أنساب الأشراف هذه الرواية بطريقه إلى أبي مخنف[2].

هذه طبيعة الذين أعدّوا العدّة لمحاربة علي عليه السلام ودوافعهم التي تحفّزهم لقتاله، فاجتمعوا بمكّة وانضمّ إليهم يعلى بن أمية، وكان بمثابة المموّل للمعركة التي ستدور رحاها في البصرة. ولمعرفة أمير المؤمنين لخلفياتهم، لخّص حركتهم في قوله: «**أَلَا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ذَمَّرَ حِزْبَهُ[3] وَاسْتَجْلَبَ جَلَبَهُ لِيَعُودَ الْجَوْرُ إِلَى أَوْطَانِهِ، وَيَرْجِعَ الْبَاطِلُ إِلَى نِصَابِهِ[4]، وَاللهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَراً**

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد المعتزلي ج٦، ص٢١٥-٢١٦، وقد مرّ قريب منه عن الطبري واليعقوبي.
(٢) أنساب الاشراف- البلاذري ص ٢١٧.
(٣) حثهم وحضهم والجلب بالتحريك ما يجلب.
(٤) النصاب الأصل أو المنبت.

وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصَفاً[1]، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَلَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا التَّبِعَةُ إِلَّا عِنْدَهُمْ، وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ، يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ[2] وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ، يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي مَنْ دَعَا وَإِلَامَ أُجِيبَ وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعِلْمِهِ فِيهِمْ، فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ الْبَاطِلِ وَنَاصِراً لِلْحَقِّ، وَمِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلَادِ، هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ، لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ وَلَا أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ، وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي».[3]

سلوك الناكثين:

بعد أن اجتمع طلحة والزبير وعائشة في مكّة عقدوا عزمهم على الذهاب إلى البصرة؛ وذلك لأنّ الحجاز في ذلك الوقت لم يكن فيها ما يمكن أن يستعان به على محاربة علي عليه السلام، فلا بدّ لمن

(١) النصف بالكسر العدل أو المنصف أي لم يحكّموا العدل بيني وبينهم أو لم يحكّموا عادلاً.
(٢) إذا فطمت الأمَ ولدها فقد انقضى إرضاعها وذهب لبنها، يمثّل به لطلب الأمر بعد فواته.
(٣) نهج البلاغة - خطب الامام علي عليه السلام شرح الشيخ محمد عبده ج ١ ص ٥٩.

أراد أن يخوض حرباً داخلية من أن يلجأ إلى أحد الأمصار التي كانت بمثابة تجمّع للثكنات العسكرية، حيث تنطلق منها جيوش المسلمين للغزو، وهي الشام والبصرة والكوفة، ومن الخيارات الثلاث مثّلت البصرة أفضلها؛ لأنّ الأولى كانت تحت سيطرة معاوية، ولم يكن طلحة والزبير ليفلحا في تولي القيادة في وجوده وهو الأقرب رحماً منهما لعثمان، بل إذا نازعاه في ملكه لكان طالبهما بدم عثمان، وهو يعلم علم اليقين أنّهم في طليعة المؤلّبين عليه. وهذا ما قاله لهم يعلى بن أمية عندما اقترحا الشام، وأمّا الكوفة فكان لعلي عليه السلام فيها ولاء، ولا يضمنون أن يجدوا الدعم الكافي من الرجال لتكوين جيش لقتال علي عليه السلام.

فاتجهوا بناءً على ذلك للبصرة، وكان على البصرة من قبل علي عليه السلام عثمان بن حنيف، فلمّا انتهوا إلى حفر أبي موسى قريباً من البصرة أرسل عثمان بن حنيف إلى القوم أبا الأسود الدؤلي يعلم له علمهم، فجاء حتّى دخل على عائشة فسألها عن مسيرها، فقالت: أطلب بدم عثمان. قال: إنّه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد، قالت: صدقتَ، ولكنّهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله، أنغضب لكم من سوط عثمان ولا نغضب

لعثمان من سيوفكم! فقال لها: ما أنتِ مِن السوط والسيف! إنّما أنتِ حبيس رسول الله ﷺ، أمرك أن تقرّي في بيتك، وتتلي كتاب ربّك، وليس على النساء قتال، ولا لهن الطلب بالدماء، وإنّ عليّاً لأولى بعثمان منك وأمسّ رحماً؛ فإنّهما ابنا عبد مناف.

فقالت: لستُ بمنصرفة حتى أمضي لما قدمتُ له، أفتظنّ يا أبا الأسود أنّ أحداً يقدم على قتالي! قال: أَمَا والله لتقاتلنّ قتالاً أهونه الشديد.

ثمّ قام فأتى الزبير فقال: يا أبا عبدالله، عهد الناس بك وأنت يوم بويع أبو بكر آخذ بقائم سيفك تقول: لا أحد أولى بهذا الأمر من ابن أبي طالب، وأين هذا المقام من ذاك؟ فذكر له دم عثمان، قال: أنت وصاحبك وليتماه فيما بلغنا! قال: فانطلق إلى طلحة فاسمع ما يقول، فذهب إلى طلحة، فوجده سادراً في غيّه، مصرّاً على الحرب والفتنة، فرجع إلى عثمان بن حنيف، فقال: إنّها الحرب، فتأهّب لها[1]!

وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد علم بأنّ القوم قد قصدوا البصرة، فأرسل لعثمان بن حنيف كتاباً جاء فيه:

«من عبدالله علي أمير المؤمنين إلى عثمان بن حنيف، أمّا بعد،

(١) شرح نهج البلاغة -ابن أبي الحديد المعتزلي ج ٦، ص ٢٢٥.

فإنّ البغاة عاهدوا الله ثمّ نكثوا وتوجّهوا إلى مصرك، وساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضى الله به، والله أشدّ بأسًا وأشدّ تنكيلاً، فإذا قدموا عليك فادعهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه، فإنْ أجابوا فأحسن جوارهم ما داموا عندك، وإنْ أبوا إلّا التمسّك بحبل النكث والخلاف، فناجزهم القتال حتى يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين، وكتبت كتابي هذا إليك من الربذة، وأنا معجّل المسير إليك إن شاء الله. وكتبه عبيدالله بن أبي رافع في سنة ست وثلاثين»[1].

فخرج عثمان بن حنيف إليهم وخرج معه أهل البصرة، فلمّا انتهوا إلى المربد قام رجل من بني جشم فقال: أيّها الناس أنا فلان الجشمي، وقد أتاكم هؤلاء القوم، فإن كانوا أتوكم من المكان الذى يأمن فيه الطير والوحش والسباع، وإن كانوا إنّما أتوكم بطلب دم عثمان، فغيرنا وَلَى قتله، فأطيعوني أيها الناس وردّوهم من حيث أقبلوا، فإنّكم إنْ لم تفعلوا لم تسلموا من الحرب الضروس والفتنة الصماء التى لا تُبقِي ولا تذر.

فحصبه ناس من أهل البصرة، فأمسك واجتمع أهل البصرة إلى المربد حتّى ملؤوه مشاة وركباناً، وعند ذلك خطب فيهم

(١) شرح نهج البلاغة- ابن أبي الحديد المعتزلي ج ٦ ص ٢٢٨، والموازنة الإسكافي.

طلحة والزبير وعائشة، وحرّضوهم على عليٍّ عليه السلام، ورموه بأنّه وثب على عثمان وقتله ثمّ ابتز الأمة حقّها ووليها دون شورة.

فقام إليهما ناس من أهل البصرة فقالوا لهما: ألم تبايعا علياً فيمن بايعه؟ ففيم بايعتما ثمّ نكثتما! فقالا: ما بايعنا، وما لأحدٍ في أعناقنا بيعة. فاختلف الناس فمنهم من يقول صدقوا، ومنهم من يقول كذبوا. واختلفوا وتشاجروا وتضاربوا بالنعل.

ومن هنا بدأ التمايز في البصرة، وعندما أصبح الغد غدا إليهم ابن حنيف في أصحابه فناشدهما الله والإسلام، وأذكرهما بيعتهما علياً عليه السلام فقالا: نطلب بدم عثمان. فقال لهما: وما أنتما وذاك، أين بنوه؟ أين بنو عمّه الذين هم أحقّ به منكم؟ كلا والله ولكنّكما حسدتماه حيث اجتمع الناس عليه، وكنتما ترجوان هذا الأمر وتعملان له! وهل كان أحدٌ أشدّ على عثمان قولاً منكما؟

فشتماه شتماً قبيحاً وذكرا أمّه، فقال للزبير: أَمَا والله لولا صفية ومكانها من رسول الله فإنّها أدنتك إلى الظل، وإنّ الأمر بيني وبينك يابن الصعبة -يعنى طلحة- أعظم من القول لأعلمتكما من أمركما ما يسوءكما. اللّهمّ إنّي قد أعذرت إلى هذين الرجلين.

ثمّ حمل عليهم، واقتتل الناس قتالاً شديداً، ثمّ تحاجزوا

واصطلحوا على أن يكتب بينهم كتاب صلح، فكتب: هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حنيف الأنصاري ومن معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وطلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما، أنّ لعثمان بن حنيف دار الإمارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأنّ لطلحة والزبير ومن معهما أن ينزلوا حيث شاؤوا من البصرة، ولا يضارّ بعضهم بعضاً في طريق ولا فرضة ولا سوق ولا شرعة ولا مرفق حتّى يقدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فإنْ أحبّوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمّة، وإن أحبوا لحق كلّ قوم بهواهم وما أحبّوا من قتال أو سلم أو خروج أو إقامة، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه، وأشد ما أخذه على نبي من أنبيائه من عهد وذمّة. وختم الكتاب. ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة وقال لأصحابه: الحقوا رحمكم الله بأهلكم، وضعوا سلاحكم، وداووا جرحاكم.

غدر الناكثين:

فمكثوا كذلك أياماً، ثمّ إنّ طلحة والزبير قالا: إنْ قدم عليٌّ ونحن على هذه الحال من القلّة والضعف ليأخذنّ بأعناقنا. فأجمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب، فأرسلا إلى وجوه الناس

وأهل الرياسة والشرف، يدعوانهم إلى الطلب بدم عثمان، وخلع علي، وإخراج ابن حنيف من البصرة. فبايعهم على ذلك الأزد وضبة وقيس بن عيلان كلّها إلّا الرجل والرجلين من القبيلة، كرهوا أمرهم فتواروا عنهم.

فلمّا استوثق لطلحة والزبير أمرهما خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر، ومعهما أصحابهما قد ألبسوهم الدروع وظاهروا فوقها بالثياب، فانتهوا إلى المسجد وقت صلاة الفجر، وقد سبقهم عثمان بن حنيف إليه، وأقيمت الصلاة، فتقدم عثمان ليصلّي بهم فأخّره أصحاب طلحة والزبير، وقدّموا الزبير فجاءت السبابجة -وهم الشرط حرس بيت المال- فأخرجوا الزبير وقدّموا عثمان، فغلبهم أصحاب الزبير فقدّموا الزبير وأخّروا عثمان، فلم يزالوا كذلك حتّى كادت الشمس تطلع، وصاح بهم أهل المسجد: أَلَا تتقون أصحاب محمّد وقد طلعت الشمس!

فغلب الزبير فصلّى بالناس، فلمّا انصرف من صلاته صاح بأصحابه المتسلّحين: أن خذوا عثمان بن حنيف، فأخذوه بعد أن تضارب هو ومروان بن الحكم بسيفيهما، فلمّا أُسِر ضُرِب ضَرب الموت، ونُتِف حاجباه وأشفار عينيه وكلّ شعرة في رأسه ووجهه،

وأخذوا السبابجة -وهم سبعون رجلاً- فانطلقوا بهم وبعثمان ابن حنيف إلى عائشة فقالت لأبان بن عثمان: اخرج إليه فاضرب عنقه، فإنّ الأنصار قتلت أباك وأعانت على قتله.

فنادى عثمان: يا عائشة، ويا طلحة ويا زبير، إنّ أخي سهل ابن حنيف خليفة علي بن أبي طالب على المدينة، وأقسم بالله إن قتلتموني ليضعنّ السيف في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم، فلا يُبقي أحداً منكم.

فكفّوا عنه، وخافوا أن يقع سهل بن حنيف بعيالاتهم وأهلهم بالمدينة فتركوه. وأرسلت عائشة إلى الزبير أن أقتل السبابجة فإنّه قد بلغني الذي صنعوا بك، قال: فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم، وَلِي ذلك منهم عبدالله ابنه، وهم سبعون رجلاً، وبقيت منهم طائفة مستمسكون ببيت المال قالوا: لا ندفعه إليكم حتى يقدم أمير المؤمنين، فسار إليهم الزبير في جيش ليلاً فأوقع بهم، وأخذ منهم خمسين أسيراً فقتلهم صبراً.

قال أبو مخنف: فحدّثنا الصقعب بن زهير قال: كانت السبابجة القتلى يومئذ أربعمائة رجل. قال: فكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف أوّل غدر كان في الإسلام، وكان السبابجة أوّل قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صبراً.

قال: وخيّروا عثمان ابن حنيف بين أن يقيم أو يلحق بعلي فاختار الرحيل، فخلّوا سبيله فلحق بعلي عليه السلام، فلمّا رآه بكى وقال له: فارقتك شيخاً وجئتك أمرد، فقال علي: إنّا لله وإنا إليه راجعون ! قالها ثلاثاً[1].

هكذا كان سلوك أصحاب الجمل، وهكذا تمسّكهم بالعهود والمواثيق، لذلك عندما علم أمير المؤمنين عليه السلام بما حدث قال للمشكّكين في قتالهم: «**فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَمَا تُجَرُّ الْأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِيَ الطَّاعَةَ وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً وَطَائِفَةً غَدْراً، فَوَاللهِ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ بِلَا جُرْمٍ جَرَّهُ لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ؛ إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ، دَعْ مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِم**»[2].

(١) شرح نهج البلاغة – ابن أبي الحديد ج ٩ ص ٣٢٠-٣٢٣.
(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٨٥ شرح الشيخ محمد عبده.

ومع ذلك عندما وصل أمير المؤمنين إلى البصرة لم يبدأهم بقتال، فقد كان يحرص على حقن الدماء، فعند دخوله سار بجيشه حتّى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية، فصلّى أربع ركعات وعفّر خديه على التراب، وقد خالط ذلك دموعه، ثمّ رفع يديه وقال: اللّهمّ ربّ السموات وما أظلّت والأرضين وما أقلّت وربّ العرش العظيم، هذه البصرة أسألك من خيرها وأعوذ بك من شرّها، اللّهمّ أنزلنا فيها خير منزل وأنت خير المنزلين. اللّهمّ إنّ هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي وبغوا عليَّ ونكثوا بيعتي، اللّهمّ احقن دماء المسلمين.

فلم يطلب عليه السلام النصر بقدر ما طلب حقن الدماء، فحركته محورها حبه لله وللإنسان وتعظيمه لحرمته.

وكان قبل وصوله إلى البصرة قد بعث صعصعة بن صوحان إلى طلحة والزبير وعائشة، ومعه كتاب تحدّث فيه عن إثارتهم للفتنة، وذكر فيه موقفهم من عثمان بن حنيف، وحذّرهم من مغبّة عملهم، وعاد صعصعة فأخبره قائلاً: رأيت قوماً ما يريدون إلّا قتالك[1].

(١) الأخبار الطوال للدينوري ١٤٧.

ومن نماذج كتبه إليهم كتابه لطلحة والزبير الذي جاء فيه:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا وإِنْ كَتَمْتُمَا أَنِّي لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي، ولَمْ أُبَايِعْهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي، وإِنَّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وبَايَعَنِي، وإِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايِعْنِي لِسُلْطَانٍ غَالِبٍ، ولا لِعَرَضٍ حَاضِرٍ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي طَائِعَيْنِ فَارْجِعَا وتُوبَا إِلَى الله مِنْ قَرِيبٍ، وإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَانِي كَارِهَيْنِ، فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّبِيلَ بِإِظْهَارِكُمَا الطَّاعَةَ وإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ. ولَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقِّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ والْكِتْمَانِ، وإِنَّ دَفْعَكُمَا هَذَا الأَمْرَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْخُلا فِيهِ، كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا مِنْهُ بَعْدَ إِقْرَارِكُمَا بِهِ. وقَدْ زَعَمْتُمَا أَنِّي قَتَلْتُ عُثْمَانَ، فَبَيْنِي وبَيْنَكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وعَنْكُمَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ يُلْزَمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ، فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا، فَإِنَّ الآنَ أَعْظَمَ أَمْرِكُمَا الْعَارُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَجَمَّعَ الْعَارُ والنَّارُ، والسَّلامُ».[1]

كما أرسل إلى عائشة يذكّرها الله ويدعوها للتوبة ممّا اقترفت من هتكها ستر رسول الله ﷺ، وأمرها بتقوى الله والرجوع إلى بيتها[2].

(١) نهج البلاغة: الكتاب ٥٤، وراجع: كشف الغمة: ج ١ ص ٣٢٤.
(٢) الإمامة والسياسة ج١، ص٩٠ الفتوح ج٢، ص٤٦٧.

ولكنهم لم يقبلوا مواعظ أمير المؤمنين واستمرّوا في غيّهم، فأرسل إليهم ابن عباس وقال له: ايت الزبير فإنّ الزبير أَلْيَن، وإنّك تجد طلحة كالثور عاقصاً قرنه يركب الصعوبة ويقول: هي أسهل، فأقرئه منّي السلام وقل له: يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق، فما عدا ممّا بدا لك؟[1]

فلم يقبل الزبير كلامه.

وقد أقام علي عليه السلام ثلاثة أيام يبعث رسله إلى أهل البصرة، فيدعوهم للرجوع إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فلم يجد عند القوم إجابة[2].

وعندما اصطفت الجيوش خرج عليٌّ عليه السلام بنفسه حاسراً على بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا سلاح عليه، فنادى: يا زبير اخرج إليّ، فخرج إليه الزبير شاكّاً في سلاحه، فقيل ذلك لعائشة، فقالت: وا ثكلك يا أسماء. فقيل لها: إنّ علياً حاسر، فاطمأنت.

واعتنق كلّ واحد منهما صاحبه، فقال له علي: ويحك يا زبير! ما الذي أخرجك؟ قال: دم عثمان، قال: قتل الله أولانا بدم عثمان، أَمَا تذكر يوم لقيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بني بياضة وهو راكب حماره،

(١) البيان والتبيين ج٣، ص٢٢١، العقد الفريد ج٣، ص٣١٤ وراجع نهج البلاغة الخطبة ٣١.
(٢) الأخبار الطوال الدنيوري ١٤٧.

فضحك إليَّ رسول الله، وضحكتُ إليه، وأنت معه، فقلتَ أنت:

يا رسول الله، ما يدع علي زهوه.

فقال لك: ليس به زهو، أتحبّه يا زبير؟

فقلتَ: إنّي والله لأحبّه.

فقال لك: إنّك والله ستقاتله وأنت له ظالم.

فقال الزبير: أستغفر الله، والله لو ذكرتُها ما خرجتُ.

فقال له عليه السلام: يا زبير ارجع.

فقال: وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان[1]؟ هذا والله العار الذي لا يغسل.

فقال عليه السلام: يا زبير ارجع قبل أن تجمع العار والنار.

فرجع الزبير وهو يقول:

اخترتُ عاراً على نارٍ مؤجّجة ... ما إن يقوم لها خلق من الطينِ

نادى عليٌّ بأمرٍ لستُ أجهله ... عار لعمرك في الدنيا وفي الدينِ

فقلتُ حسبك مِن عدل أبا حسن ... فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني

فقال ابنه عبدالله: أين تذهب وتدعنا؟ فقال: يا بني، أذكرني أبو الحسن بأمر كنت قد نسيته، فقال: لا والله، ولكنّك فررتَ

(١) البطان الحزام الذي يلي البطن، وأيضاً حزام الرّحل والقتب (لسان العرب ج١٣، ص٥٦).

من سيوف بني عبد المطلب، فإنّها طوال حداد تحملها فتية أنجاد، قال: لا والله، ولكنّي ذكرتُ ما أنسانيه الدهر، فاخترتُ العار على النار، أبالجبن تعيّرني لا أبا لك؟ ثمّ أمال سنانه وشدّ في الميمنة.

فقال علي: أفرجوا له فقد أهاجوه.

ثمّ رجع فشدّ في الميسرة، ثمّ رجع فشدّ في القلب، ثمّ عاد إلى ابنه فقال: أيفعل هذا جبان؟[1]

وكان عليٌّ عليه السلام قد أشار إلى أنّ ابن الزبير هو الذي فرّق بينه وبين أهل البيت عليهم السلام، كما روى ذلك الطبري حيث قال له علي عليه السلام: قد كنّا نعدّك من بني عبد المطلب حتّى بلغ ابنك ابن السوء ففرّق بيننا وبينك.

ويقصد ابنه عبدالله الذي اشتهر بعدائه لأهل البيت عليهم السلام، غذّته به خالته أمّ المؤمنين عائشة، فقد كانت شديدة الحب له وقد تكنّت باسمه.

وقبل ذلك خرج علي عليه السلام مرّة للقاء طلحة والزبير، فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم، فقال علي: لعمري لقد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً، إن كنتما أعددتما عند الله عذراً فاتقيا الله

(١) مروج الذهب ج٢، ص٣٧١ وراجع أنساب الأشراف ج٣، ص٥١.

سبحانه ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، ألم أكن أخاكما في دينكما تحرّمان دمي وأحرّم دماءكما؟ فهل من حدث أحلّ لكما دمي؟ قال طلحة: ألّبت الناس على عثمان، قال علي: ﴿**يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ**﴾[1][2].

وقد مرّ عليك أنّ طلحة كان أكثر المؤلّبين على عثمان، لذلك أشار عليه السلام بهذه الآية لعدم تورّعه في ما قذف به أمير المؤمنين من أجل السلطة، وصدق عليه المثل رمتني بدائها وانسلّت.

وبعد فشل كلّ الجهود التي بذلها أمير المؤمنين عليه السلام لإرجاع القوم عن غيّهم، لم يبدأهم أمير المؤمنين بقتال، حتّى أنّ أصحابه استبطأوا إذنه لهم بالقتال وكما في كتاب الجمل عن ابن عباس قال: قلت له: ما تنتظر؟ والله ما يعطيك القوم إلّا السيف، فاحمل عليهم قبل أن يحملوا عليك.

فقال: نستظهر بالله عليهم.

قال ابن عباس: فوالله مارمت من مكاني حتى طلع علينا نشّابهم كأنّه جراد منتشر، فقلت: أَمَا ترى يا أمير المؤمنين إلى ما يصنع القوم؟ مُرْنَا ندفعهم.

(١) سورة النور، الآية: (٢٥).
(٢) تاريخ الطبري ج٣، ص٥٠١، الكامل في التاريخ ج٢، ص٣٣٤.

فقال: حتّى أعذر إليهم ثانية. ثمّ قال: مَن يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إليه وهو مقتول وأنا ضامن له على الله الجنّة؟

فلم يقم أحد إلّا غلام عليه قباء أبيض حدث السن من عبد القيس يقال له مسلم، كأنّي أراه فقال: أنا أعرضه عليهم يا أمير المؤمنين، وقد احتسبتُ نفسي عند الله تعالى.

فأعرض عليه السلام عنه إشفاقاً عليه ونادى ثانية: مَن يأخذ هذا المصحف ويعرضه على القوم وليعلم أنّه مقتول وله الجنّة؟

فقام مسلم بعينه وقال: أنا أعرضه.

فأعرض عليه السلام ونادى ثالثة فلم يقم غير الفتى، فدفع إليه المصحف وقال: امضِ إليهم واعرضه عليهم وادعهم إلى ما فيه.

فأقبل الغلام حتّى وقف بإزاء الصفوف ونشر المصحف وقال: هذا كتاب الله عزّ وجلّ، وأمير المؤمنين عليه السلام يدعوكم إلى ما فيه.

فقالت عائشة: اشجروه بالرماح قبّحه الله!

فتبادروا إليه بالرماح فطعنوه من كلّ جانب، وكانت أمّه حاضرة فصاحت وطرحت نفسها عليه وجرّته من موضعه، ولحقها جماعة من عسكر أمير المؤمنين عليه السلام أعانوها على حمله حتى طرحوه بين يدي أمير المؤمنين عليه السلام وأمّه تبكي وتندبه وتقول:

يـا ربّ إنّ مسـلماً دعاهـم يتلـو كتـاب الله لا يخشـاهم
فخضّبـوا مِـن دَمِـه قناهـم وأمّـهـم قـائـمـة تـراهـم
تأمرهـم بالقتـل ولا تنهاهـم (١)

وعن اليعقوبي أنّه قال لأصحابه: أيّها الناس صافوهم ولا تبدوهم البراز، ولا ترموهم بالسهام، ولا تضربوهم بالسيف، ولا تطعنوهم بالرماح حتّى يبدوكم، فإذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتّبعوا مولّياً، ولا تقبلوا شيئاً من أموالهم إلّا ما تجدونه في معسكرهم من كراع أو سلاح أو عبيد أو إماء، وما عدا ذلك فهو ميراث لورثتهم.

فرمى رجلٌ من عسكر القوم بسهم فقتل رجلاً من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، فأُتي به إليه فقال: اللّهمّ اشهد. ثمّ رمى آخر فقتل رجلاً من أصحاب علي، فقال: اللّهمّ فاشهد، ثمّ رمى رجل آخر فأصاب عبدالله بن بديل ابن ورقاء الخزاعي فقتله، فأتى به أخوه عبد الرحمن يحمله، فقال علي: اللّهمّ اشهد(٢).

ورمى أصحاب الجمل بالنبل حتى عقروا منهم جماعة، فقال

(١) الجمل ٣٣٩:تاريخ الطبري ج٤، ص٥١١ عن عمار بن معاوية الدهني نحوه، وراجع تاريخ الطبري ج٤، ص٥٠٩ والكامل في التاريخ ج٢، ص٣٥٠ ومروج الذهب ج٢، ص٣٧٠.
(٢) تاريخ اليعقوبي ص ١٨٢.

الناس: يا أمير المؤمنين إنّه قد عقرنا نبلهم، فما انتظارك بالقوم؟

فقال علي: اللّهمّ إنّي أُشهِدك أنّي قد أعذرتُ وأنذرتُ، فكُنْ عليهم من الشاهدين.[1]

مِن كلّ هذا نعرف ديدن أمير المؤمنين عليه السلام مع أعدائه، فهو ليس على شكٍّ مِن أمرهم أو حِلّيّة قتالهم، ولكنّه يتأخّر في قتالهم شفقةً عليهم من النار.

وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا علي لا يحبّك إلّا مؤمن، ولا يبغضك إلّا منافق**». ورفع السيف والقتال أعلى مصاديق البغض.

علي والقاسطون:

تكرّر سلوك علي عليه السلام هذا مع القاسطين؛ أصحاب معاوية، مع أنّ الفروق بين معاوية وأصحاب الجمل كبيرة؛ لأنّه طليق ابن طليق ولم تُعهَد له مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صحبة مثل صحبة الزبير، وليس معه زوجة من زوجات النبي يضلّل بها العامة وضعاف القلوب والعقول. ولكن لم يختلف سلوك أمير المؤمنين معه عن سلوكه مع أصحاب الجمل.

(١) المناقب للخوارزمي ١٨٦/ ٢٢٣.

جزاء الإساءة بالإحسان:

عندما وصل علي عليه السلام بجيشه إلى صفين كان معاوية قد سبقه إلى شريعة الفرات، فأخذوا الشريعة، ولم يكن هنالك موضع لورود الفرات قرب صفين غير الشريعة التي استولى عليها معاوية، وصفّ فيها خيله بقيادة أبو الأعور السلمي ومعهم الرجال، وصفّ صفاً معهم من الرماح والدرق، وقد منعوا جيش أمير المؤمنين من ورود الماء، ففزعوا إلى أمير المؤمنين يبلغونه الخبر، فدعا صعصعة بن صوحان فقال له: إيت معاوية وقل له: إنّا سرنا مسيرنا هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنّك قدمت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالقتال، ونحن من رأينا الكفّ عنك حتّى ندعوك ونحتجّ عليك.

وهذه أخرى قد فعلتموها، قد حلتم بين الناس وبين الماء والناس غير منتهين أو يشربوا، فابعث إلى أصحابك فليخلّوا بين الناس وبين الماء ويكفّوا حتّى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له وقدمتم له، وإن كان أعجب إليك أن نترك ما جئنا له، ونترك الناس يقتتلون على الماء حتّى يكون الغالب هو الشارب فعلنا.

فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟

فقال الوليد بن عقبة: امنعهم الماء كما منعوه عثمان بن عفان، حصروه أربعين صباحاً يمنعونه برد الماء، ولين الطعام، اقتلهم عطشاً، قتلهم الله عطشاً!

فقال له عمرو بن العاص: خلِّ بينهم وبين الماء، فإنّ القوم لن يعطشوا وأنت ريّان، ولكن بغير الماء فانظر ما بينك وبينهم.

فأعاد الوليد بن عقبة مقالته.

وقال عبدالله بن أبي السرح: امنعهم الماء إلى الليل، فإنّهم إن لم يقدروا عليه رجعوا، امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة.

فقال صعصعة: إنّما يمنعه الله عزّ وجلّ يوم القيامة الكفرة الفسقة وشربة الخمر، ضربك وضرب هذا الفاسق -يعني الوليد بن عقبة-، فتواثبوا إليه يشتمونه ويتهدّدونه، فقال معاوية: كفّوا عن الرجل فإنّه رسول.[1]

فرجع صعصعة، فأخبر علياً بما كان، وأنّ معاوية قال: سيأتيكم رأيي.

ثمّ إنّ معاوية سرب الخيل إلى أبي الأعور ليمنعهم الماء.[2]

وظلّ أهل العراق يومهم ذلك وليلتهم بلا ماء إلّا من كان ينصرف من الغلمان إلى طرف الغيضة، فيمشي مقدار فرسخين

(١) تاريخ الطبري ج٣، ص٥٧١.
(٢) الكامل في التاريخ ج٢، ص٢٦٤.

فيستقي، فغمّ علياً أمرُ الناس غمّاً شديداً، وضاق بما أصابهم من العطش ذرعاً.[1]

فكلّمه أصحابه وطلبوا منه أن يقاتلوا على الماء، ولمّا رأى علي ما آلت إليه الأمور خاطب أصحابه بقوله:

«قد استطعموكم القتال، فأقرّوا على مذلّة وتأخير محلّة، أو رَوُّوا السيوف من الدماء تَرْوَوا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين. أَلَا وإنّ معاوية قاد لُمةً من الغواة وعمّس عليهم الخبر، حتّى جعلوا نحورهم أغراض المنية».[2]

فترجّل الأشعث والأشتر وأصحاب البصائر من أصحاب علي، وترجّل معهما اثنا عشر ألفاً، فحملوا على عمرو بن العاص ومن معه من أهل الشام، فأزالوهم عن الماء حتى غمست خيل علي سنابكها في الماء[3]، وأصبح الماء في أيدي أصحاب علي عليه السلام.

فقال عمرو بن العاص لمعاوية: ما ظنّك بالقوم اليوم إن منعوك الماء كما منعتهم أمس؟

(١) الأخبار الطوال ١٦٨.
(٢) نهج البلاغة الخطبة ٥١.
(٣) وقعة صفين ص١٦٧-١٧٠.

فقال معاوية: دع ما مضى، ما ظنّك بعلي؟

قال: ظنّي أنّه لا يستحلّ منك ما استحللت منه، لأنّه أتاك في غير أمر الماء.(١)

وكان أصحاب علي عليه السلام قد طلبوا منه أن يمنع معاوية وجيشه الماء كما منعوهم، وقالوا له: لا تسقهم منه قطرة، واقتلهم بسيوف العطش، وخذهم قبضاً بالأيدي فلا حاجة لك بالحرب.

فقال: لا والله لا أكافئهم بمثل فعلهم، افسحوا لهم عن بعض الشريعة، حد السيف ما يغني عن ذلك.(٢)

وقال لهم: إنّ الله نصركم ببغيهم وظلمهم.(٣)

هكذا تتدخل مناقبية علي عليه السلام وانتمائه لقيمه، لتفرض عليه سلوكاً ينسجم مع رساليّته وحبّه للبشر، وتجلّي اسم الرحمة في حياته، فلم يعاقب أهل الشام بما اقترفوه في حق جيشه، بل ردّ الإساءة بالإحسان، والعدوان بالعفو، وهو القائل: «**إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ**»(٤).

وبعد أن استولى جيش علي على شريعة الفرات، لم يواصل القتال

(١) الأخبار الطوال ١٦٩.
(٢) شرح نهج البلاغة ج١، ص٢٤.
(٣) الكامل في التاريخ ج٢، ص٣٦٥، تاريخ الطبري ج٣، ص٥٧٢.
(٤) نهج البلاغة، الحكمة ١١.

ليقضي على البغاة، بل واصل عليه السلام إرسال رسله إلى معاوية ليقيم الحجة عليه وعلى من معه، ولكن معاوية قابل كلّ ذلك بالرفض، طامعاً في أن يتسلّق بقضية عثمان سدة حكم الدولة الإسلامية، أو لا أقل أن ينال حكم الشام.

وقد اعترض بعض أصحاب علي عليه السلام لتأخيره للقتال، وقالوا: يا أمير المؤمنين! خلّفنا ذرارينا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أطراف الشام لنتخذها وطناً؟ ائذن لنا في القتال، فإنّ الناس قد قالوا.

قال لهم عليه السلام: وماقالوا؟

فقال منهم قائل: إنّ الناس يظنّون أنّك تكره الحرب كراهية الموت، وإنّ من الناس من يظنّ أنّك في شكٍّ من قتال أهل الشام. فقال عليه السلام: ومتى كنت كارهاً للحرب قط؟[1] إنّ من العجب حبّي لها غلاماً ويفعاً وكراهيتي لها شيخاً بعد نفاد العمر وقرب الوقت!

أمّا شكّي في القوم فلو شككتُ فيهم لشككتُ في أهل البصرة، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدتُ يسعني إلّا القتال أو أن أعصي الله ورسوله، ولكنّي أستأني بالقوم عسى أن يهتدوا، أو تهتدي منهم طائفة، فإنّ رسول الله قال لي يوم خيبر: لأن

(١) يعني بكارهاً هنا خائفاً من خوضها، وإلاّ فإنّه على خطى ابن عمّه لا يحب سفك الدماء. (المؤلّف)

يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس.[1]

أو كما نقل عنه في خطبته في نهج البلاغة: «**أَمَّا قَوْلُكُمْ أَكُلَّ ذَلِكَ كَرَاهِيَةَ الْمَوْتِ فَوَاللهِ مَا أُبَالِي دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ، وَأَمَّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِي أَهْلِ الشَّامِ فَوَاللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلَّا وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلَالِهَا وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا**».[2]

هكذا كان يفكّر أمير المؤمنين عليه السلام، فهو مع شجاعته التي لا يوجد لها نظير، ومع قوّته القاهرة، لم يكن يميل لسفك الدماء، وكان يملأه الحب للبشر جميعاً، ويتمنّى لهم الهداية ونيل السعادة الأخروية.

هكذا تجلّت قيمة الحب في حياة ابن أبي طالب، فأعطتها المذاق الذي جذب إليها قلوب الموالين، وقلوب كثير من الباحثين على مختلف مللهم ونحلهم.

(١) شرح نهج البلاغة ج٤، ص١٣.
(٢) نهج البلاغة الخطبة ٥٥.

(د) قيمة الحياة

وهل للحياة قيمة؟

نعم الحياة الدنيا تترسم كقيمة تحت وعي الإنسان لها، كيف ينشط فيها ليوظّفها لسعادته، وهي تتحرّك لتضبط مسار الإنسان، وعلى أساس هذا الوعي يمكن أن يفلت من قبضة السأم وطول الأمل، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام لمن ذمها:

«إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهَا، مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللهِ، وَمُصَلَّى مَلَائِكَةِ اللهِ، وَمَهْبِطُ وَحْيِ اللهِ، وَمَتْجَرُ أَوْلِيَاءِ اللهِ، اكْتَسَوْا فِيهَا الرَّحْمَةَ وَرَبِحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ آذَنَتْ بِبَيْنِهَا وَنَادَتِ بِفِرَاقِهَا وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا؟ فَمَثَّلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ، وَرَاحَتْ بِعَافِيَةٍ وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا وَتَخْوِيفًا وَتَحْذِيراً، فَذَمَّهَا رِجَالٌ غَدَاةَ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَّرَتْهُمُ الدُّنْيَا فَذَكَرُوا،

وَحَذَّرَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعَظَتْهُمْ فَاتَّعَظُوا»[1].

فحب الحياة ينبع من معرفة أهدافنا فيها، وهي ليست الأهواء والرغبات، لأنّ الهدف لا بدّ أن يكون موجوداً قبل الإنسان، فكيف يكون ما هو نتاج وجود الإنسان هدفاً له؟ إنّ هدف الرماية يحدد قبل الرماية، ولا يمكن أن تكون الثغرة التي تحدثها الرماية -بعد إطلاقها- هدفاً للرماية ذاتها!

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الأمور الأخرى التي ظنّها بعض السذّج أهدافاً، في الوقت الذي لم تكن إلّا وسائل.

إنّ الحياة أعزّ من أن يكون هدفها: المصلحة، أو اللذة، أو حتى استمرار النسل وزيادة الإنتاج، ويهدرها الذين لا يعرفون هذه الحقيقة.

إنّ الله خلق الحياة من أجلنا، فلمن خلقنا؟

«خلقتُ الأشياء لأجلك»

«وخلقتك لأجلي»

فلا بدّ أن يخضع الإنسان لمن خُلق له في كلّ خطوة من خطواته، وكلّ نأمة من نأماته، فهو لم يخلق للعبث واللذة -وإن كانت اللذة

(١) نهج البلاغة شرح صبحي الصالح ص ٤٩٢.

غير محرّمة إذا حافظ الإنسان في استعمالها على منهاج الله- وإنّما خُلق..لله، ومن هذا المنظار نظر علي عليه السلام للحياة الدنيا فأحبّها؛ لأنّها ميدان طاعة الله ومزرعة جنّته، فتحوّل بهذا الحب الواعي إلى شعلة من النشاط، وأعظم تجليات نشاطه كان جهاده وخوضه للمعارك، التي كما يقول نهض فيها ولم يبلغ العشرين، جندل الفرسان وهزم جيوش الكفر والضلال، كلّما نجمت ناجمة للكفر قذفه رسول الله في لهواتها فلا ينكفئ حتى يطأها بأخمصه، ويطفئ لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، قريباً من رسول الله، مجداً كادحاً ولياً ناصحاً.

ففي كلّ حروب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان له عليه السلام قصب السبق، فهو صاحب لوائه ورايته في كلّ غزواته، والثابت حين يفرّ الأصحاب يصعدون لا يلوون على أحد والرسول يدعوهم في أخراهم، فهو الكرّار غير الفرار كما وصفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين أعطاه الراية يوم خيبر، والجهاد عند أمير المؤمنين باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنّته الوثيقة كما قال في تحريض أصحابه عليه[1].

وقد شهدت له صفين والجمل الكثير من المواقف، ولأنّ

(١) نهج البلاغة شرح صبحي الصالح ص ٦٩.

جهاده عليه السلام أشهر من أن نخوض فيه، فنكتفي بنقل بعض كلماته الخالدة في العزم والتحريض على الجهاد، فها هو يصوّر لأصحابه كيف كان صبر المؤمنين الأوائل على الجهاد وعلى رأسهم علي عليه السلام بقوله: «**وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ، وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ، وَجِدّاً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا**[1] **أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ**[2] **وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ**[3] **وَمُتَبَوِّئًا أَوْطَانَهُ، وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلَا اخْضَرَّ لِلْإِيمَانِ عُودٌ، وَايْمُ اللهِ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا**[4] **وَلَتَتْبِعُنَّهَا نَدَما**»[5].

فأمير المؤمنين عليه السلام على رأس المجاهدين الثابتين كما وصف نفسه وموضعه من مسيرة الرسالة الإسلامية، حيث كان في مقدمة

(١) يتخالسان كلّ يطلب اختلاس روح الآخر. والتصاول أن يحمل كلّ قرن على قرنه.
(٢) الكبت الذل والخذلان.
(٣) جِران البعير بالكسر مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره. وإلقاء الجران كناية عن التمكّن.
(٤) الاحتلاب استخراج ما في الضرع من اللبن. والضمير المنصوب يعود إلى أعمالهم المفهومة من قوله ما أتيتم. واحتلاب الدم تمثيل لاجترارهم على أنفسهم سوء العاقبة من أعمالهم، وسيتبعون تلك الأعمال بالندم عندما تصيبهم دائرة السوء أو تحلّ قريباً من دارهم.
(٥) نهج البلاغة شرح صبحي الصالح ص ٩٢.

ركبها أو كما قال في ساقتها فقد جاء عنه عليه السلام: «إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً وَلَا يَدَّعِي نُبُوَّةً، فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ، فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ(١) وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ، أَمَا وَاللهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا(٢) حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا مَا عَجَزْتُ وَلَا جَبُنْتُ، وَإِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا فَلَأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ(٣)، مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ؟ وَاللهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ، وَاللهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا فَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ الْمُحْضَ صَابِحاً ... وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرَا(٤)

وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ الْعَلَاءَ وَلَمْ تَكُنْ ... عَلِيّاً وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرَا(٥)

(١) القناة العود والرمح، والكلام تمثيل لاستقامة أحوالهم. والصفاة الحجر الصلد الضخم، وأراد به مواطئ أقدامهم، والكلام تصوير لاستقرارهم على راحة كاملة وخلاصهم ممّا كان يرجف قلوبهم ويزلزل أقدامهم.
(٢) إن كنت لفي ساقتها: الساقة مؤخّر الجيش السائق لمقدمه. وولّت بحذافيرها أي بجملتها. والضمائر في ساقتها وولت بحذافيرها عائدة إلى الحادثة المفهومة من الحديث؛ وهي ما أنعم الله به من بعثة النبي ﷺ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الذلّة للعزّة.
(٣) الباطل يبادر الأوهام فيشغلها عن الحق ويقوم حجاباً مانعاً للبصيرة عن الحقيقة، فكأنّه شيء اشتمل على الحق فستره وصار الحق في طيّه، والكلام تمثيل لحال الباطل مع الحق وحال الإمام في كشف الباطل.
(٤) المحض: اللبن الخالص بلا رغوة.
(٥) نهج البلاغة ج ١ ص ٨٢ شرح الشيخ محمد عبده.

وقد مرت عليك بعض هذه الكلمات، التي قالها عليه السلام عند خروج أصحاب الجمل، وقد روى ابن عباس أنّه دخل عليه بذي قار وهو يخصف نعله، يحثّه للخروج لملاقاة الحجيج الراجعين من مكة، حتّى يبيّن لهم حُجّته وحُجّة الخارجين، وكأنّ ابن عباس أشفق أن يملّ القوم من تأخّر خروج أمير المؤمنين، فأراد أن يبيّن له عليه السلام أنّه لا تهمّه هذه الإمارة التي يشفق ابن عباس على ضياعها وفوتها فقال له: ما قيمة هذه النعل؟ فقال: لا قيمة لها. فقال عليه السلام: والله لهي أحبّ إليّ مِن إمرتكم إلّا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً، ثمّ خرج عليه السلام فخطب الناس[1].

وعند مقارنته بالآخرين -خصوصاً الذين سبقوه للحكم- فهو يقرّر حقيقة عبر هذه الكلمات: «**فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا، وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا**[2]**، وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا، وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللهِ حِينَ وَقَفُوا، وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً**[3] **وَأَعْلاَهُمْ فَوْتاً**[4]**، فَطِرْتُ بِعِنَانِهَا وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهَانِهَا**[5] **كَالْجَبَلِ لاَ تُحَرِّكُهُ الْقَوَاصِفُ وَلاَ**

(١) نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السلام، ج ١، الصفحة ٨٠.
(٢) التقبّع الاختباء والتطلّع ضده.
(٣) كناية عن ثبات الجأش؛ فإنّ رفع الصوت عند المخاوف إنّما هو من الجزع، وقد يكون كناية عن التواضع أيضاً.
(٤) الفوت السبق.
(٥) هذا الضمير وسابقه يعودان إلى الفضيلة المعلومة من الكلام؛ فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو يمثّل حاله مع القوم بحال خيل الحلبة. والعنان للفرس معروف. وطار به سبق به. والرهان الجعل الذي وقع التراهن عليه.

تُزِيلُهُ الْعَوَاصِفُ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ[1] وَلاَ لِقَائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ، الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ، وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، رَضِينَا عَنِ اللهِ قَضَاءَهُ وَسَلَّمْنَاهُ لِلَّهِ أَمْرَهُ[2]، أَتَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ وَاللهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ فَلَا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ، فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي، وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي».[3]

وقال: «**وَلَقَدْ عَلِمَ الْمُسْتَحْفَظُونَ[4] مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنِّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى رَسُولِهِ سَاعَةً قَطُّ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ[5] بِنَفْسِي فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ[6] فِيهَا الْأَبْطَالُ وَتَتَأَخَّرُ فِيهَا الْأَقْدَامُ نَجْدَةً[7] أَكْرَمَنِي اللهُ بِهَا**»[8]

فهو مع كلّ ما ثبت له من شجاعة وإقدام يرى أنّ ذلك من

(١) الهمز والغمز الوقيعة، أي لم يكن فيَّ عيبٌ أُعابُ به.
(٢) قوله رضينا إلخ كلام قاله عند ما تفرّس في قوم من عسكره أنهّم يتهمونه فيما يخبرهم به من أنباء الغيب.
(٣) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد المعتزلي ج ٢ ص ٢٨٤.
(٤) المُستَحفَظون -بفتح الفاء- اسم مفعول أي الذين أودعهم النبي ﷺ أمانة سّره وطالبهم بحفظها. ولم يرد على الله ورسوله: لم يعارضهما في أحكامها.
(٥) المواساة بالشيء الإشراك فيه، فقد أشرك النبي في نفسه، ولا تكون بالمال إلاّ أن يكون كفافاً، فان أعطيت عن فضل فليس بمواساة، قالوا والفصيح في الفعل آسيته ولكن نطق الإمام حجة.
(٦) تتراجع.
(٧) الشجاعة.
(٨) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٧١ شرح الشيخ محمد عبده.

كرم الله عليه، ويتحرّز من أن ينسب ذلك لنفسه تورّعاً وتقوى وإيماناً بالله.

والجهاد عند أمير المؤمنين عليه السلام يجب أن لا يخلو من العلاقة الإيمانية، والمواساة التي هي طابع العلاقة بين المؤمنين، ففي وصيته لأصحابه عند القتال يقول: «**وَأَيُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ أَحَسَ مِنْ نَفْسِهِ رِبَاطَةَ جَأْشٍ عِنْدَ اللِّقَاءِ**[1]، **وَرَأَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِهِ فَشَلاً فَلْيَذُبَّ عَنْ أَخِيهِ**[2] **بِفَضْلِ نَجْدَتِهِ الَّتِي فُضِّلَ بِهَا عَلَيْهِ كَمَا يَذُبُّ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَهُ مِثْلَهُ، إِنَّ الْمَوْتَ طَالِبٌ حَثِيثٌ لَا يَفُوتُهُ الْمُقِيمُ وَلَا يُعْجِزُهُ الْهَارِبُ، إِنَّ أَكْرَمَ الْمَوْتِ الْقَتْلُ**[3]، **وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ بِيَدِهِ لَأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللهِ**».

«**وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْكُمْ تَكِشُّونَ كَشِيشَ الضِّبَابِ**[4]، **لاَ تَأْخُذُونَ حَقّاً وَلَا تَمْنَعُونَ ضَيْماً، قَدْ خُلِّيتُمْ وَالطَّرِيقَ**[5] **فَالنَّجَاةُ لِلْمُقْتَحِمِ**

(١) رباطة الجأش: قوّة القلب عند لقاء الأعداء.
(٢) الفشل: الضعف، وقوله فليذب أي فليدفع، والنَّجدة بالفتح: الشجاعة.
(٣) في سبيل الحماية عن الحق وردّ كيد الباطل عنه.
(٤) كشيش الضِّباب: صوت احتكاك جلودها عند ازدحامها، والمراد حكاية حالهم عند الهزيمة.
(٥) قد خلى بينكم وبين طريق الآخرة. فمن اقتحم أخطار القتال ورمى بنفسه إليها فقد نجا، ومن تلوّم -أي توقّف وتباطأ- فقد هلك.

وَالْهَلَكَةُ لِلْمُتَلَوِّمِ، وَمِنْهُ فَقَدِّمُوا الدَّارِعَ وَأَخِّرُوا الْحَاسِرَ[1] وَعَضُّوا عَلَى الْأَضْرَاسِ، فَإِنَّهُ أَنْبَى[2] لِلسُّيُوفِ عَنِ الْهَامِ[3]، وَالْتَوُوا[4] فِي أَطْرَافِ الرِّمَاحِ فَإِنَّهُ أَمْوَرُ[5] لِلْأَسِنَّةِ، وَغُضُّوا الْأَبْصَارَ فَإِنَّهُ أَرْبَطُ لِلْجَأْشِ وَأَسْكَنُ لِلْقُلُوبِ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ، وَرَايَتَكُمْ فَلَا تُمِيلُوهَا وَلَا تُخِلُّوهَا وَلَا تَجْعَلُوهَا إِلَّا بِأَيْدِي شُجْعَانِكُمْ وَالْمَانِعِينَ الذِّمَارَ[6] مِنْكُمْ، فَإِنَّ الصَّابِرِينَ عَلَى نُزُولِ الْحَقَائِقِ[7] هُمُ الَّذِينَ يَحُفُّونَ[8] بِرَايَاتِهِمْ وَيَكْتَنِفُونَهَا[9] حِفَافَيْهَا وَوَرَاءَهَا وَأَمَامَهَا، لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْهَا فَيُسْلِمُوهَا وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا فَيُفْرِدُوهَا، أَجْزَأَ امْرُؤٌ قِرْنَهُ[10]، وَآسَى أَخَاهُ بِنَفْسِهِ وَلَمْ يَكِلْ قِرْنَهُ إِلَى أَخِيهِ فَيَجْتَمِعَ عَلَيْهِ قِرْنُهُ وَقِرْنُ أَخِيهِ، وَأَيْمُ اللهِ لَئِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ سَيْفِ الْعَاجِلَةِ لَا تَسْلَمُوا مِنْ سَيْفِ الْآخِرَةِ، أَنْتُمْ لَهَامِيمُ[11] الْعَرَبِ

(١) الدارع لابس الدرع، والحاسر من لا درع له.
(٢) صيغة أفعل التفضيل من «نبا السيف» إذا دفعته الصلابة من موقعه فلم يقطع.
(٣) جمع هامة، و هي الرأس.
(٤) انعطفوا وأميلوا جانبكم لتزلق الرماح ولا تنفذ فيكم أسنّتها.
(٥) أي أشدّ فعلًا للمور، وهو الاضطراب الموجب للانزلاق وعدم النفوذ.
(٦) بكسر الذال، ما يلزم الرجل حفظه وحمايته من ماله وعرضه.
(٧) جمع حاقّة، وهي النازلة الثابتة.
(٨) أي يستديرون حولها.
(٩) يحيطون بها.
(١٠) أجزأ وما بعده أفعال ماضية في معنى الأمر أي فليكفّ كلّ منكم قرنه أي كفؤه وخصمه فيقتله وليواس أخاه. آساه يؤاسيه: قوّاه، رباعي ثلاثيه أسى البناء إذا قوي، ومنه الأسية للمحكم من البناء والدعامة، ولا يترك خصمه إلى أخيه فيجتمع على أخيه خصمان فيغلبانه ثمّ ينقلبان عليه فيهلكانه.
(١١) جمع لِهميم -بالكسر- الجواد السابق من الإنسان والخيل.

وَالسَّنَامُ الْأَعْظَمُ، إِنَّ فِي الْفِرَارِ مَوْجِدَةَ[1] اللهِ وَالذُّلَّ اللاَّزِمَ وَالْعَارَ الْبَاقِيَ، وَإِنَّ الْفَارَّ لَغَيْرُ مَزِيدٍ فِي عُمُرِهِ وَلَا مَحْجُوزٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ يَوْمِهِ، مَنْ رَائِحٌ إِلَى اللهِ كَالظَّمْآنِ يَرِدُ الْمَاءَ الْجَنَّةُ تَحْتَ أَطْرَافِ الْعَوَالِي[2]، الْيَوْمَ تُبْلَى[3] الْأَخْبَارُ، وَاللهِ لَأَنَا أَشْوَقُ إِلَى لِقَائِهِمْ مِنْهُمْ إِلَى دِيَارِهِم»[4].

وإلى غيرها من الوصايا الحربية التي رويت عنه عليه السلام، ولا ينبئك مثل خبير، فأمير المؤمنين كما قال عندما قالت قريش إنّ ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب: «**لِلَّهِ أَبُوهُمْ وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا وَأَقْدَمُ فِيهَا مُقَامًا مِنِّي؟ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ، وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاع**»[5].

فهو عليه السلام أكثر المسلمين معالجة للحرب، وأكثرهم نجدة وشجاعة، وكما قالوا ما علا أحد إلّا قدّه، وكانت ضرباته أبكاراً لا تثنى، ويكفيك لقبه الكرار، فهو لا يفرّ ممّن كرّ عليه، ولا يكرّ على من فرّ منه.

(١) غضبه.
(٢) الرماح.
(٣) تمتحن.
(٤) نهج البلاغة ج ٢ ص٣ شرح الشيخ محمد عبده.
(٥) نهج البلاغة ج ١ ص ٧٠ شرح الشيخ محمد عبده.

خاتمة

الحديث يطول في هذا المقام ولن توفيه مجلدات من الكتب، ولكن حسبنا أن نكون قد بيّنا من خلال هذا الكتيّب أنّ حياة ابن أبي طالب عليه السلام كانت تطبيقاً وشاهداً على ما ثبت له في القرآن الكريم والسنّة المطهرة من فضائل، بحيث لا تكون الفضائل وليدة عصور متأخّرة لتعالج أخطاءه، كما هو حال من سبقه من الحكام الذين صيغت فضائلهم لتبرّر لهم ما ارتكبوه من أفعال، ولتقود في نهاية الأمر لتفريغ الدين من محتواه بتقديم هذه الرموز كنماذج له، فلا تنتظم حياة الناس على أساس أيّ نوع من الفضيلة والقِيَم؛ لأنّ مخالفة أيّ قيمة تجد لها قدوة تتبع خطاها، فتكذب وتغدر وتفجر، وتأكل أموال الناس بالباطل، وتظلم بعضها بعضاً، وفق هدى الأصحاب وعلى ضوء ما خلّفوه من سنن وفضائل.

وللتأكيد على القِيَم التي جاء الإسلام لزرعها في مقام الحكم واهتمامه بالمستضعفين، نعرض في ما يلي عهد الإمام علي لمالك الأشتر، وهو من أطول العهود المدوّنة، ولا نقدّم له

لأنّه يتحدّث عن نفسه بما احتواه من مضامين عالية وسياسة دقيقة، ترفدها بصيرة نافذة وعمق إيماني لا قعر له، وقد كتبه له حين ولّاه أمر مصر.

قال صاحب النهج: مِنْ عَهْدٍ لَهُ عليه السلام كَتَبَهُ لِلْأَشْتَرِ النَّخَعِيِّ رحمه الله لَمَّا وَلَّاهُ عَلَى مِصْرَ وَأَعْمَالِهَا حِينَ اضْطَرَبَ أَمْرُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ، وَهُوَ أَطْوَلُ عَهْدٍ كَتَبَهُ وَأَجْمَعُهُ لِلْمَحَاسِنِ:

«هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ؛ جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا، وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا، أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ وَيَزَعَهَا[1] عِنْدَ الْجَمَحَاتِ[2]؛ فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ اللهُ. ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي

(١) يكفّها.
(٢) منازعات النفس إلى شهواتها ومآربها.

مِثْلِ الَّذِي مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ، فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَامْلِكْ هَوَاكَ وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ(١).

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمْ أَكْلَهُمْ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ(٢)، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ(٣)، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَإِ(٤)، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ(٥) وَابْتَلَاكَ بِهِمْ، وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللهِ(٦) فَإِنَّهُ لَا يَدَيْ لَكَ بِنِقِمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ

(١) ابخل بنفسك عن الوقوع في غير الحل، فليس الحرص على النفس إيفاءها كلّ ما تحب، بل من الحرص أن تحمل على ما تكره.
(٢) وفي بعض النسخ المطبوعة حديثاً: «أو نظير لك في الخلق».
(٣) يسبق. والزلل: الخطأ.
(٤) يُؤتى مبني للمجهول نائب فاعله على أيديهم. وأصله تأتي السئيات على أيديهم الخ.
(٥) استكفاك: طلب منك كفاية أمرهم والقيام بتدبير مصالحهم.
(٦) أراد بحرب الله مخالفة شريعته بالظلم والجور، ولا يدي لك بنقمته أي ليس لك يد أن تدفع نقمته، أي لا طاقة لك بها.

عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَةٍ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَنْدُوحَةً[1]، وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ[2].

وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً[3]، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ سُبْحَانَهُ فَوْقَكَ وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مِنْ غَرْبِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ[4].

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ[5]؛ فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَالٍ، أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوًى مِنْ رَعِيَّتِكَ[6]، فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى

(١) بَجِحَ به: كفَرِحَ لفظاً ومعنى. والبادرة: ما يبدر من الحدّة عند الغضب في قول أو فعل. والمندوحة: المتسع أي المخلص.

(٢) مؤمّر: كمعظّم أي مسلّط. والإدغال: إدخال الفساد. ومنهكة: مضعفة، نهكه: أضعفه. والغِيَر بكسر ففتح: حادثات الدهر بتبدّل الدول. والاغترار بالسلطة تقرّب منها أي تعرّض للوقوع فيها.

(٣) الأُبّهَة بضم الهمزة وتشديد الباء مفتوحة: العظمة والكبرياء. والمَخِيلة بفتح فكسر: الخيلاء والعجب.

(٤) الطِماح ككِتَاب: النشوز والجماح. ويطامن أي يخفض منه. والغَرْب بفتح فسكون: الحدّة. ويفيء: يرجع إليك بما عزب أي غاب من عقلك.

(٥) المساماة: المباراة في السمو أي العلو.

(٦) من لك فيه هوى أي لك إليه ميل خاص.

يَنْزِعَ وَيَتُوبَ[1]، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نَقِمَتِهِ مِنْ إِقَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ؛ فَإِنَّ اللهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعَامَّةِ[2]، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَئُونَةً فِي الرَّخَاءِ وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ[3]، وَأَقَلَّ شُكْراً عِنْدَ الْإِعْطَاءِ وَأَبْطَأَ عُذْراً عَنِ الْمَنْعِ، وَأَضْعَفَ صَبْراً عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ[4]، وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ[5] وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغْوُكَ لَهُمْ وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ، وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَأَشْنَأَهُمْ عِنْدَكَ أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ[6]؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوباً الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا[7]،

(١) أدحض: أبطل. وحرباً أي محارباً. ويَنْزِع كيَضْرِب أي يقلع عن ظلمه.

(٢) يُجْحِف أي يُذهِب برضى الخاصّة فلا ينفع الثاني معه، أمّا لو سخط الخاصّة ورضي العامّة فلا أثر لسخط الخاصّة فهو مغتفر.

(٣) الإلحاف: الإلحاح والشدّة في السؤال.

(٤) من أهل الخاصّة متعلق بأثقل، وما بعده من أفعال التفضيل.

(٥) جِماع الشيء بالكسر: جمعه أي جماعة الاسلام. والعامّة خبر عماد وما بعده.

(٦) أشنأهم: أبغضهم. والأطلب للمعائب: الأشد طلباً لها.

(٧) ستر فعل ماض صلة من، أي أحق الساترين لها بالستر.

فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ.

أَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِحُ لَكَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ[1]، وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضْعِفُكَ عَنِ الْأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ[2]؛ فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى[3] يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيراً وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الْآثَامِ، فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَئِمَةِ وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ[4]، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ[5] مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ[6] وَآثَامِهِمْ؛ مِمَّنْ

(١) أي احلل عقد الأحقاد من قلوب الناس بحسن السيرة معهم. واقطع عنك أسباب الأوتار أي العداوات بترك الإساءة إلى الرعية. والوِتر بالكسر: العداوة. وتغاب أي تغافل. والساعي هو النمّام بمعائب الناس.

(٢) الفضل هنا الإحسان بالبذل. ويعدك: يخوّفك من الفقر لو بذلت. والشَّرَه بالتحريك: أشد الحرص.

(٣) غرائز: طبائع متفرقة تجتمع في سوء ظن بكرم الله وفضله.

(٤) بِطانة الرجل بالكسر: خاصّته، وهو من بطانة الثوب خلاف ظهارته. والأثمة: جمع آثم، فاعل الإثم أي الذنب. والظَلَمة: جمع ظالم.

(٥) منهم متعلّق بالخلف أو متعلّق بواجد، ومن مستعملة في المعنى الاسمي بمعنى بدل.

(٦) الآصار: جمع إصر بالكسر وهو الذنب والإثم وكذلك الأوزار.

لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ، أُولَئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفًا[1]، فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ. ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ،[2] وَأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَاقِعًا ذَاكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ[3]، وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَنْ لاَ يُطْرُوكَ وَلَا يَبْجَحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ[4] وَتُدْنِي مِنَ الْعَزَةِ.

وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيداً لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ[5].

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ وَالٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ[6] وَتَخْفِيفِهِ الْمَئُونَاتِ عَنْهُمْ وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ

(١) الإلف بالكسر: الألفة والمحبّة.

(٢) ليكن أفضلهم لديك أكثرهم قولًا بالحق المر. ومرارة الحق: صعوبته على نفس الوالي.

(٣) واقعاً حال ممّا كره الله، أي لا يساعدك على ما كره الله حال كونه نازلًا من ميلك إليه أي منزلة، أي وإن كان من أشدّ مرغوباتك.

(٤) رُضْهُم، أي عوّدهم على أن لا يطروك أي يزيدوا في مدحك، ولا يبجحوك أي يفرحوك بنسبة عمل عظيم إليك ولم تكن فعلتَه. والزَّهو بالفتح: العجب. وتُدنِي أي تقرّب من العزّة أي الكِبْر.

(٥) فإنّ المسيء ألزم نفسه استحقاق العقاب، والمحسن ألزمها استحقاق الكرامة.

(٦) إذا أحسن الوالي إلى رعيّته وثق من قلوبهم بالطاعة له، فإنّ الإحسان قياد الإنسان فيحسن ظنّه بهم، بخلاف ما لو أساء إليهم فإنّ الإساءة تُحدِث العداوة في نفوسهم فينتهزون الفرصة لعصيانه فيسوء ظنّه بهم.

عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلَهُمْ[1]، فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ؛ فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَباً[2] طَوِيلاً، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلَاؤُكَ عِنْدَهُ[3].

وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَاجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلْفَةُ وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ، وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ؛ فَيَكُونَ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا. وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ، فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ[4]، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنْهَا عُمَّالُ الْإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي

(١) قِبَلهم بكسر ففتح أي عندهم.

(٢) النَّصَب بالتحريك: التعب.

(٣) البلاء هنا: الصنع مطلقاً حسناً أو سيئاً.

(٤) كُتّاب كرُمّان: جمع كاتب. والكتبة منهم عاملون للعامّة كالمحاسبين والمحرّرين في المعتاد من شؤون العامّة كالخراج والمظالم، ومنهم مختصّون بالحاكم يفضي إليهم بأسراره ويوليهم النظر فيما يكتب لأوليائه وأعدائه وما يقرّر في شؤون حربه وسلمه مثلاً.

الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ لَهُ سَهْمَهُ[1] وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ عَهْداً مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظاً، فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ وَزَيْنُ الْوُلَاةِ وَعِزُّ الدِّينِ وَسُبُلُ الْأَمْنِ وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ[2]، ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا[3]، وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعاً إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ[4]، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ مِمَّا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ، ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ[5]، وَفِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ، وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ

(١) سهمه: نصيبه من الحق.

(٢) أي يكون محيطاً بجميع حاجاتهم دافعاً لها.

(٣) المعاقد: العقود في البيع والشراء وما شابهها مما هو من شأن القضاة. وجمع المنافع من حفظ الأمن وجباية الخراج وتصريف الناس في منافعهم العامّة ذلك شأن العمّال. والمؤتمنون هم الكتّاب.

(٤) الضمير للتجار وذوي الصناعات، أي أنهم قِوَام لِمَن قبلهم بسبب المرافق أي المنافع التي يجتمعون لأجلها، ولها يقيمون الاسواق ويكفون سائر الطبقات من الترفّق أي التكسّب بأيديهم ما لا يبلغه كسب غيرهم من سائر الطبقات.

(٥) رفدهم: مساعدتهم وصلتهم.

حَقِيقَةِ مَا أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالاهْتِمَامِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ.

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْبًا[1] وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَيَرْؤُفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ[2]، وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالْأَحْسَابِ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ؛ فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ[3]، ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُهُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ[4]، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ[5]، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ، وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعًا لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

(١) جيب القميص: طوقه، ويقال نقي الجيب أي طاهر الصدر والقلب. والحلم: العقل.

(٢) ينبو: يشتد ويعلو عليهم ليكفّ أيديهم عن ظلم الضعفاء.

(٣) ثمّ الصق إلخ تبيين للقبيل الذي يؤخذ منه الجند ويكون منه رؤساؤه وشرح لأوصافهم. وجماع من الكرم: مجموع منه. وشُعَب بضم ففتح: جمع شعبة، والعرف: المعروف.

(٤) تفاقم الأمر: عظم. أي لا تعدّ شيئاً قويتهم به غاية في العظم زائداً عماّ يستحقون، فكلّ شيء قوّيتهم به واجب عليك إتيانه وهم مستحقون لنيله.

(٥) أي لا تعدّ شيئاً من تلطفّك معهم حقيراً فتتركه لحقارته، بل كلّ تلطف وإنْ قلّ فله موقع من قلوبهم.

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ بِمَا يَسَعُهُمْ وَيَسَعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ(١)، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمّاً وَاحِداً فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ(٢)، وَلاَ تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ(٣) عَلَى وُلاَةِ أُمُورِهِمْ وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ(٤)، فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ فِعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ إِنْ شَاءَ اللهُ(٥) تَعَالَى، ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تَضُمَّنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ(٦)، وَلاَ يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ

(١) آثر أي أفضل وأعلى منزلة، فليكن أفضل رؤساء الجند من واسى الجند أي ساعدهم بمعونته لهم. وأَفْضَل عليهم أي أفاض وجاد من جِدَته. والجِدَة بكسر ففتح: الغنى، والمراد ما بيده من أرزاق الجند وما سلم إليه من وظائف المجاهدين لا يقتر عليهم في الفرض ولا ينقصهم شيئاً ممّا فرض لهم، بل يجعل العطاء شاملاً لمن تركوهم في الديار. من خلوف الأهلين: جمع خلف بفتح فسكون من يبقى في الحي من النساء والعجزة بعد سفر الرجال.

(٢) عليهم أي على الرؤساء.

(٣) حِيطة بكسر الحاء: من مصادر حاطه بمعنى حفظه وصانه، أي بمحافظتهم على ولاة أمورهم وحرصهم على بقائهم، وأن لا يستثقلوا دولتهم ولا يستبطئوا انقطاع مدتهم، بل يعدّون زمنهم قصيراً يطلبون طوله.

(٤) و مثله في متن ط الحديث من شرح ابن أبي الحديد، وهاهنا في نسخة الصبحي الصالح زيادة هذا نصها:
«فإنّ عطفك عليهم يعطّف قلوبهم عليك، و إنّ أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد و ظهور مودة الرعية. وإنّه لا تظهر مودتهم إلّا بسلامة صدورهم، و لا تصح نصيحتهم إلّا بحيطتهم على ولاة الأمور...».

(٥) ما صنع أهل الأعمال العظيمة منهم، فتعديد ذلك يهزّ الشجاع أي يحرّكه للإقدام، ويحرّض الناكل أي المتأخّر القاعد.

(٦) لا تنسبنّ عمل امرئ إلى غيره ولا تقصر به في الجزاء دون ما يبلغ منتهى عمله الجميل.

امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيراً، وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تَسْتَصْغِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمـًا، وَارْدُدْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يَضلَعُكَ مِنَ الْخُطُوبِ[1] وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ إِرْشَادَهُمْ: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ. فَالرَّدُّ إِلَى اللهِ الْأَخْذُ بِمُحْكَمِ كِتَابِهِ[2]، وَالرَّدُّ إِلَى الرَّسُولِ الْأَخْذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُفَرِّقَةِ[3].

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ[4] مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ وَلَا يُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلَا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ[5]، وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ[6]، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ[7]، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاهُ[8]، وَأَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّمـًا بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ،

(١) ضَلَع فلاناً كمَنَع: ضربه في ضلعه. والمراد ما يشكل عليك.

(٢) نصه الصريح.

(٣) سنّة الرسول ﷺ كلّها جامعة ولكن رويت عنه سنن افترقت بها الآراء، فإذا أخذت فخذ بما أجمع عليه ممّا لا يختلف في نسبته إليه.

(٤) ثمّ اختر إلخ انتقال من الكلام في الجند إلى الكلام في القضاة.

(٥) أمحكه جعله محكان أي عسر الخلق، أو أغضبه أي لا تحمله مخاصمة الخصوم على اللجاج والاصرار على رأيه. والزلة بالفتح: السقطة في الخطأ.

(٦) حصر كفرح: ضاق صدره، أي لا يضيق صدره من الرجوع إلى الحق.

(٧) لاشراف على الشيء: الاطلاع عليه من فوق. فالطمع من سافلات الامور من نظر إليه وهو في أعلى منزلة النزاهة لحقته وصمة النقيصة فما ظنك بمن هبط إليه وتناوله.

(٨) لا يكتفي في الحكم بما يبدو له بأوّل فهم وأقربه دون أن يأتي على أقصى الفهم بعد التأمّل.

وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكْشِيفِ الْأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ[1] عِنْدَ إِيضَاحِ الْحُكْمِ مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ[2] وَلاَ يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، وَأُولَئِكَ قَلِيلٌ، ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ[3] وَافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيحُ عِلَّتَهُ[4] وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ[5]، فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظَراً بَلِيغاً فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيراً فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ وَاسْتَعْمِلْهُمْ اخْتِيَاراً وَلَا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً[6]، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ، وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ[7] الْمُتَقَدِّمَةِ؛ فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقاً وَأَصَحُّ أَعْرَاضاً وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافاً وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَراً، ثُمَّ أَسْبِغْ

(١) هذا وما بعده أتباع لأفضل رعيتك. والشبهات: مالا يتضح الحكم فيها بالنص، فينبغي الوقوف على القضاء حتى يرد الحادثة إلى أصل صحيح. والتبرّم الملل والضجر. وأصرمهم: أقطعهم للخصومة.

(٢) لا يزدهيه: لا يستخفه زيادة الثناء عليه.

(٣) تعاهده: تتبعه بالاستكشاف والتعرف وضمير قضائه لافضل الرعية الموصوف بالاوصاف السابقة.

(٤) البذل: العطاء أي أوسع له حتى يكون ما يأخذه كافيا لمعيشة مثله وحفظ منزلته.

(٥) إذا رفعت منزلته عندك هابته الخاصة كما تهابه العامة فلا يجرؤ أحد على الوشاية به عندك خوفاً منك وإجلالاً لمن أجللته.

(٦) ولهّم الأعمال بالامتحان لا محاباة أي اختصاصاً وميلاً منك لمعاونتهم. وأَثَرَة بالتحريك أي استبداداً بلا مشورة، فإنّهما أي المحاباة والأثرة يجمعان الجور والخيانة.

(٧) توخّ أي اطلب وتحرَّ أهل التجربة إلخ. والقَدَم بالتحريك: واحدة الأقدام، أي الخطوة السابقة. وأهلها هم الأوّلون.

عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ(١) فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا(٢) أَمَانَتَكَ، ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ وَابْعَثِ الْعُيُونَ(٣) مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ(٤) عَلَى اسْتِعْمَالِ الْأَمَانَةِ وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَتَحَفَّظْ مِنَ الْأَعْوَانِ فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ(٥)، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِداً فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ.

وَتَفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ؛ فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحاً لِمَنْ سِوَاهُمْ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ. وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا، فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً أَوِ

---

(١) أسبغ عليه الرزق: أكمله وأوسع له فيه.

(٢) نقصوا في أدائها أو خانوا.

(٣) العيون الرقباء.

(٤) حدوة أي سوق لهم وحثّ.

(٥) اجتمعت إلخ أي اتفقت عليها أخبار الرقباء.

انْقِطَاعَ شُرْبٍ أَوْ بَالَّةٍ أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بِمَا تَرْجُو أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ[1]، وَلاَ يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ[2]، مُعْتَمِداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ[3]، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الْأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ[4]، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا، وَإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ[5] وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

(١) إذا شكوا ثقل المضروب من مال الخراج أو نزول علّة سماوية بزرعهم أضرت بثمراته، أو انقطاع شِرب بالكسر أي ماء في بلاد تسقى بالأنهار. أو انقطاع بالة أي ما يبلّ الأرض من ندى ومطر فيما يسقى بالمطر، أو إحالة أرض بكسر همزة إحالة، أي تحويلها البذر إلى فساد بالتعفّن لما اغتمرها أي عمّها من الغرق فصارت غَمِقَة كفرحة أي غلب عليها الندى والرطوبة حتى صار البذر فيها غَمِقاً ككتف أي له رائحة خمة وفساد، ونقصت لذلك غلّاتهم. أو أجحف العطش أي ذهب بمادة الغذاء من الأرض فلم تنبت، فعليك عند الشكوى أن تخفّف عنهم.

(٢) التبجّح: السرور بما يرى من حسن عمله في العدل.

(٣) أي متخذاً زيادة قوّتهم عماداً لك تستند إليه عند الحاجة، وأنهّم يكونون سنداً بما ذخرت عندهم من إجمامك أي إراحتك لهم. والثقة منصوب بالعطف على فضل.

(٤) طِيبة بكسر الطاء مصدر طاب وهو علّة لاحتملوه أي لطيب أنفسهم باحتماله، فإنّ العمران مادام قائماً ونامياً فكلّ ما حملت أهله سهل عليهم أن يحتملوا، والإعواز الفقر والحاجة.

(٥) لتطلع أنفسهم إلى جمع المال ادّخاراً لما بعد زمن الولاية إذا عزلوا.

ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ[1] فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَايِدَكَ وَأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ[2]، مِمَّنْ لاَ تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَافٍ لَكَ بِحَضْرَةِ مَلَإٍ، وَلَا تَقْصُرُ بِهِ الْغَفْلَةُ[3] عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوَابِ عَنْكَ وَفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلَا يُضْعِفُ عَقْداً اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلَا يَعْجِزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْكَ[4]، وَلاَ يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفْسِهِ فِي الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بِقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ. ثُمَّ لَا يَكُنِ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ[5] وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ؛ فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّضُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ[6]، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلَكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ فَاعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ

(١) ثمّ انظر إلخ انتقال من الكلام في أهل الخراج إلى الكلام في الكُتّاب جمع كاتب.

(٢) بأجمعهم متعلّق بأخصص، أي ما يكون من رسائلك حاوياً لشيء من المكائد للأعداء وما يشبه ذلك من أسرارك فاخصصه بمن فاق غيره في جميع الأخلاق الصالحة. ولا تبطره أي لا تطغيه الكرامة فيجرأ على مخالفتك في حضور ملأ وجماعة من الناس فيضرّ ذلك بمنزلتك منهم.

(٣) لا تكون غفلته موجبة لتقصيره في إطلاعك على ما يرد من أعمالك، ولا في إصدار الأجوبة عنه على وجه الصواب، بل يكون من النباهة والحذق بحيث لا يفوته شيء من ذلك.

(٤) أي يكون خبيراً بطرق المعاملات بحيث إذا عقد لك عقداً في أيّ نوع منها لا يكون ضعيفاً، بل يكون محكماً جزيل الفائدة لك، وإذا وقعت مع أحد في عقد كان ضرره عليك لا يعجز عن حل ذلك العقد.

(٥) الفِراسة بالكسر: قوّة الظنّ وحسن النظر في الأمور. والاستنامة السكون والثقة، أي لا يكون انتخاب الكتاب تابعاً لميلك الخاص.

(٦) يتعرّفون للفراسات أي يتوسّلون إليها لتعرفهم.

كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَراً وَأَعْرَفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهاً؛ فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ وَلِمَنْ وُلِّيتَ أَمْرَهُ، وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْساً مِنْهُمْ لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا[1]، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ أُلْزِمْتَهُ[2].

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ[3] وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْراً، الْمُقِيمِ مِنْهُمْ وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ؛ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ[4] وَجُلَّابُهَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا[5] وَلَا يَجْتَرِءُونَ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ[6]، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ، وَاعْلَمْ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقاً فَاحِشاً وَشُحّاً قَبِيحاً[7] وَاحْتِكَاراً لِلْمَنَافِعِ وَتَحَكُّماً فِي الْبِيَاعَاتِ،

(١) أي اجعل لرئاسة كلّ دائرة من دوائر الأعمال رئيساً من الكتّاب مقتدراً على ضبطها، لا يقهره عظيم تلك الأعمال ولا يخرج عن ضبطه كثيرها.

(٢) إذا تغابيت أي تغافلت عن عيب في كتابك كان ذلك العيب لاصقاً بك.

(٣) ثمّ استوص، انتقال من الكلام في الكتّاب إلى الكلام في التجّار والصنّاع.

(٤) المتردّد بأمواله بين البلدان. والمترفّق: المكتسب. والمرافق تقدّم تفسيرها بالمنافع، وحقيقتها وهي المراد هنا: ما به يتم الانتفاع كالآنية والأدوات وما يشبه ذلك.

(٥) أي ويجلبونها من أمكنة بحيث لا يمكن التئام الناس واجتماعهم في مواضع تلك المرافق من تلك الأمكنة.

(٦) فإنهّم: علة لاستوصِ وأوصِ. والبائقة: الداهية. والتجّار والصنّاع مسالمون لا تخشى منهم داهية العصيان.

(٧) الضيق: عسر المعاملة. والشُّح: البخل. والاحتكار: حبس المطعوم ونحوه عن الناس لا يسمحون به إلاّ بأثمان فاحشة.

وَذَلِكَ بَابُ مَضَرَّةٍ لِلْعَامَّةِ وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ، فَامْنَعْ مِنَ الِاحْتِكَارِ فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَنَعَ مِنْهُ، وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعًا سَمْحًا بِمَوَازِينِ عَدْلٍ وَأَسْعَارٍ لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ(١)، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ بِهِ وَعَاقِبْ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ(٢).

ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى(٣)؛ فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا وَمُعْتَرًّا، احْفَظْ اللهَ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ(٤)، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكِ وَقِسْمًا مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ(٥)؛ فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى، وَكُلٌّ مَنْ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ فَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ(٦)؛ فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لِأَحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ(٧)، فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ(٨)، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ

(١) المبتاع: المشتري.

(٢) قارف أي خالط. والحُكرة بالضم: الاحتكار، فمن أتى عمل الاحتكار بعد النهي عنه فنكّل به، أي أوقع به النكال والعذاب عقوبة له لكن من غير إسراف في العقوبة، ولا تجاوز عن حد العدل فيها.

(٣) البُؤسى بضم أوله: شدّة الفقر. والزَمنى بفتح أوله: جمع زمن وهو المصاب بالزَمانة بفتح الزاي أي العاهة، يريد أرباب العاهات المانعة لهم عن الاكتساب.

(٤) القانع: السائل من قَنَع كمَنَع أي سأل وخضع وذل. وقد تبدّل القاف كافاً فيقال كنع. والمعتّر بتشديد الراء: المتعرّض للعطاء بلا سؤال. واستحفظك: طلب منك حفظه.

(٥) صوافي الإسلام جمع صافية وهي أرض الغنيمة. وغلّاتها: ثمراتها.

(٦) طغيان بالنعمة.

(٧) التافه: القليل، لا تعذر بتضييعه إذا أحكمت وأتقنت الكثير المهم.

(٨) لا تشخص أي لا تصرف همّك أي اهتمامك عن ملاحظة شؤونهم. وصعّر خده: أماله إعجاباً وكبراً.

تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ[1] وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ، فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ[2]، ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ[3]؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ.

وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ[4]، وَذَلِكَ عَلَى الْوُلَاةِ ثَقِيلٌ وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَامٍ طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ. وَاجْعَلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامًّا فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ[5]، وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ[6] حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ[7]؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ

(١) تقتحمه العين: تكره أن تنظر إليه احتقاراً.

(٢) فرّغ أي اجعل للبحث عنهم أشخاصاً يتفرّغون لمعرفة أحوالهم يكونون ممن تثق بهم، يخافون الله ويتواضعون لعظمته، لا يأنفون من تعرّف حال الفقراء ليرفعوها إليك.

(٣) بالإعذار إلى الله أي بما يقدم لك عذراً عنده.

(٤) الأيتام. وذوو الرقة في السن المتقدمون فيه.

(٥) لذوي الحاجات أي المتظلّمين تتفرّغ لهم فيه بشخصك للنظر في مظالمهم.

(٦) تأمر بأن يقعد عنهم ولا يتعرّض لهم جندك إلخ. والأحراس: جمع حَرَس بالتحريك من يحرس الحاكم من وصول المكروه. والشُرَط بضم ففتح: طائفة من أعوان الحاكم، وهم المعروفون الآن بالضابطة، واحده شُرْطة بضم فسكون.

(٧) التعتعة في الكلام: التردّد فيه من عجز أو عيّ، والمراد غير خائف، تعبيراً باللازم.

رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ(١): لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ(٢) لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ. ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ(٣)، وَنَحِّ عَنْكَ الضِّيقَ وَالْأَنَفَ يَبْسُطِ اللهُ عَلَيْكَ بِذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ(٤) وَيُوجِبْ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئًا(٥) وَامْنَعْ فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ.

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا؛ مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيَا عَنْكَ كُتَّابُكَ(٦)، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ وُرُودِهَا عَلَيْكَ مِمَّا تَحْرَجُ بِهِ صُدُورُ أَعْوَانِكَ(٧)، وَامْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ، وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ وَأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ(٨)، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلَّهِ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ، وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ لِلَّهِ بِهِ دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ اللهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ مِنْ

(١) أي في مواطن كثيرة.

(٢) التقديس: التطهير، أي لا يطهّر الله أمة إلخ.

(٣) الخُرق بالضم: العنف، ضد الرفق. والعِيّ بالكسر: العجز عن النطق، أي لا تضجر من هذا ولا تغضب لذاك.

(٤) الضيق: ضيق الصدر بسوء الخلق. والأَنَف محركة: الاستنكاف والاستكبار. وأكناف الرحمة: أطرافها.

(٥) سهلًا لا تخشنه باستكثاره والمن به، وإذا منعت فامنع بلطف وتقديم عذر.

(٦) يعيى: يعجز.

(٧) حرج يحرج من باب تعب: ضاق. والأعوان تضيق صدورهم بتعجيل الحاجات ويحبّون المماطلة في قضائها استجلاباً للمنفعة أو إظهاراً للجبروت.

(٨) أجزلها: أعظمها.

ذَلِكَ كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلَا مَنْقُوصٍ[1] بَالِغًا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ، وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّراً وَلَا مُضَيِّعًا[2]؛ فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ، وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ: كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟ فَقَالَ: صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ. وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا.

وَأَمَّا بَعْدَ هَذَا فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ مِنْ رَعِيَّتِكَ؛ فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ، وَالِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ[3] يُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ.

وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ؛ إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ[4] أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ

(١) غير مثلوم أي غير مخدوش بشيء من التقصير ولا مخروق بالرياء. وبالغاً حال بعد الأحوال السابقة، أي وإن بلغ من إتعاب بدنك أي مبلغ.

(٢) التنفير بالتطويل، والتضييع بالنقص في الأركان، والمطلوب التوسط.

(٣) سِمَات: جمع سِمَة بكسر ففتح العلامة، أي ليس للحق علامات ظاهرة يتميّز بها الصدق من الكذب، وإنّما يعرف ذلك بالامتحان، ولا يكون إلّا بالمحافظة.

(٤) فلأيّ سبب تحتجب عن الناس في أداء حقهم أو في عمل تمنحه إياهم؟

تُسْدِيهِ؟ أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ[1]، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ مَا لاَ مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ؛ مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَةٍ[2]، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ.

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وَبِطَانَةً فِيهِمُ اسْتِيثَارٌ وَتَطَاوُلٌ وَقِلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولَئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ[3]، وَلَا تُقْطِعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعَةً، وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي شِرْبٍ[4] أَوْ عَمَلٍ مُشْتَرَكٍ يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ[5] وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْأُخِرَةِ.

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِراً مُحْتَسِبًا وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذَلِكَ مَحْمُودَةٌ[6]. وَإِنْ

(١) البذل: العطاء، فإن قنط الناس من قضاء مطالبهم منك أسرعوا إلى البعد عنك فلا حاجة للاحتجاب.

(٢) شَكاة بالفتح: شكاية.

(٣) فاحسم أي اقطع مادة شرورهم عن الناس بقطع أسباب تعدّيهم، وإنّما يكون بالأخذ على أيديهم ومنعهم من التصرّف في شؤون العامّة.

(٤) الإقطاع: المنحة من الارض. والقطيعة الممنوح منها. والحَامّة كالطَامّة: الخاصّة والقرابة. والاعتقاد: الامتلاك. والعُقدة بالضم: الضيعة. واعتقاد الضيعة: اقتناؤها. وإذا اقتنوا ضيعة فربما أضروا بِمَن يليها أي يقرب منها من الناس في شِرب بالكسر وهو النصيب في الماء.

(٥) مهنؤه: منفعته الهنيئة.

(٦) المَغَبّة كمَحَبّة: العاقبة. وإلزام الحق لمن لزمهم وإنْ ثقل على الوالي وعليهم فهو محمود العاقبة بحفظ الدولة في الدنيا ونيل السعادة في الآخرة.

ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ وَاعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ وَرِفْقًا بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَاراً تَبْلُغُ فِيهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ[1].

وَلَا تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لِلَّهِ فِيهِ رِضًى، فَإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً[2] لِجُنُودِكَ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ، وَلَكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صُلْحِهِ؛ فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ[3]، فَخُذْ بِالْحَزْمِ وَاتَّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ، وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوٍّ لَكَ عُقْدَةً أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ[4]، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ[5]؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ وَتَشْتِيتِ آرَائِهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ

(١) وإن فعلت فعلًا ظنّت الرعية أنّ فيه حيفاً أي ظلمًا فأَصْحِر أي أبرز لهم وبينّ عذرك فيه. وعدل عنه كذا: نحّاه عنه. والإصحار: الظهور، من أصحر إذا برز في الصحراء. ورياضة: تعويداً لنفسك على العدل. والإعذار: تقديم العذر أو إبداؤه.

(٢) دعَة: راحة.

(٣) قَارب أي تقرّب منك بالصلح ليلقى عليك غفلة عنه فيغدرك فيها.

(٤) أصل معنى الذمّة وِجْدانٌ مُودعٌ في جِبلّة الإنسان ينبّهه لرعاية حق ذوي الحقوق عليه، ويدفعه لأداء ما يجب عليه منها، ثمّ أُطلقت على معنى العهد. وجعل العهد لباساً لمشابهته له في الوقاية من الضرر. وحاطه: حفظه.

(٥) الجُنّة بالضم: الوقاية أي حافظ على ما أعطيت من العهد بروحك.

بِالْعُهُودِ[1]، وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ[2] لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ[3]، فَلاَ تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ وَلاَ تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ وَلَا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ[4]؛ فَإِنَّهُ لاَ يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلاَّ جَاهِلٌ شَقِيٌّ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيمًا يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ[5]، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ[6]، فَلَا إِدْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ[7] وَلاَ خِدَاعَ فِيهِ.

وَلَا تَعْقِدْ عَقْداً تُجَوِّزُ فِيهِ الْعِلَلَ، وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ قَوْلٍ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ[8]؛ فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ

(١) الناس مبتدأ وأشد خبر والجملة خبر ليس، يعني أنّ الناس لم يجتمعوا على فريضة من فرائض الله أشدّ من اجتماعهم على تعظيم الوفاء بالعهود مع تفرّق أهوائهم وتشتّت آرائهم، حتى أنّ المشركين التزموا الوفاء فيما بينهم فأولى أن يلتزمه المسلمون.

(٢) أي حال كونهم دون المسلمين في الأخلاق والعقائد.

(٣) لأنهّم وجدوا عواقب الغدر وبيلة أي مهلكة، وما والفعل بعدها في تأويل مصدر، أي استبيالهم.

(٤) خاس بعهده: خانه ونقضه. والختل: الخداع.

(٥) الأمن: الأمان. وأفضاه هنا بمعنى أفشاه، وأصله المزيد، من فضا فضوا من باب قعد أي اتسع، فالرباعي بمعنى وسّعه، والسعة مجازية يراد بها الإفشاء والانتشار. والحريم ما حرم عليك أن تمسّه. والمَنَعَة بالتحريك: ما تمتنع به من القوة.

(٦) يستفيضون أي يفزعون إليه بسرعة.

(٧) الإدغال: الإفساد. والمدالسة: الخيانة.

(٨) لعلل: جمع علة وهي في العقد والكلام بمعنى ما يصرفه عن وجهه ويحوله إلى غير المراد، وذلك يطرأ على الكلام عند إبهامه وعدم صراحته، ولحن القول ما يقبل التوجيه كالتورية والتعريض، فإذا تعلّل بهذا المعاقد لك وطلب شيئاً لا يوافق ما أكدته وأخذت عليه الميثاق فلا تعول عليه، وكذلك لو رأيت ثقلاً من التزام العهد فلا تركن إلى لحن القول لتتملّص منه، فخذ بأصرح الوجوه لك وعليك.

فِيهِ طِلْبَةٌ لَا تَسْتَقِيلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ[1].

إِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنَقِمَةٍ وَلَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ وَلَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ، وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ؛ لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ[2]، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ وَيَدُكَ بِعُقُوبَةٍ فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ[3].

وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِ[4]، وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ

(١) وأن تحيط: عطف على تبعة، أي وتخاف أن تتوجه عليك من الله مطالبة بحقه في الوفاء الذي غدرته، ويأخذ الطلب بجميع أطرافك فلا يمكنك التخلص منه، ويصعب عليك أن تسأل الله أن يقيلك من هذه المطالبة بعفو عنك في دنيا أو آخرة بعد ما تجرّأت على عهده بالنقض.

(٢) القَوَد بالتحريك: القصاص. وإضافته للبدن لأنّه يقع عليه.

(٣) أفرط عليك: عجل بما لم تكن تريده. أردت تأديباً فأعقب قتلاً. وقوله فإنّ في الوَكْزة تعليل لأفرط. والوَكْزة بفتح فسكون: الضربة بجُمع الكف بضم الجيم أي قبضته، وهي المعروفة باللكمة. وقوله فلا تطمحن أي لا يرتفعن بك كبرياء السلطان عن تأدية الدية إليهم في القتل الخطأ: جواب الشرط.

(٤) الإطراء: المبالغة في الثناء. والفُرصة بالضم: حادث يمكنك لو سعيت من الوصول لمقصدك. والعُجْب في الإنسان من أشدّ الفرص لتمكين الشيطان من قصده، وهو محق الإحسان بما يتبعه من الغرور والتعالي بالفعل على من وصل إليه أثره.

بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ[1] أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعُودَكَ بِخُلْفِكَ؛ فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ[2] عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ النَّاسِ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ.

إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَا[3]، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ[4]، فَضَعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوقِعَهُ، وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ، وَالتَّغَابِيَ[5] عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَحَ لِلْعُيُونِ؛ فَإِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْكَ لِغَيْرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ.

امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَسَوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ[6]، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفٍّ الْبَادِرَةِ وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ

(١) التَزَيُّد كالتَقَيُّد: إظهار الزيادة في الأعمال عن الواقع منها في معرض الافتخار.

(٢) المقت: البغض والسخط.

(٣) التساقط بمد السين من ساقط الفرس عدوه إذا جاء مسترخياً.

(٤) تنكّرت لم يعرف وجه الصواب فيها. واللجاجة: الإصرار على منازعة الأمر ليتم على عسر فيه. والوهن: الضعف.

(٥) احذر أن تخصّ نفسك بشيء تزيد به عن الناس وهو ممّا تجب فيه المساواة من الحقوق العامّة. والتغابي: التغافل. وما يُعنى به مبني للمجهول أي يُهتمّ به.

(٦) يقال فلان حي الأنف إذا كان أبيّاً يأنف الضيم، أي املك نفسك عند الغضب. والسَوْرة بفتح السين وسكون الواو: الحِدّة. والحَد بالفتح: البأس. والغَرْب بفتح فسكون: الحَد، تشبيهاً له بحدّ السيف ونحوه.

حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ[1] فَتَمْلِكَ الاِخْتِيَارَ، وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ، وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا ﷺ أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا[2]، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ؛ لِكَيْ لَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا.

وَمِنْ هَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ آخِرُهُ وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ[3] أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ؛ مِنَ الْإِقَامَةِ عَلَى الْعُذْرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ[4] وَإِلَى خَلْقِهِ، مَعَ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ، وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِهِ وَآلِهِ كَثِيراً وَسَلَّمَ تَسْلِيماً.[5]

(١) البادرة: ما يبدر من اللسان عند الغضب من سباب ونحوه. وإطلاق اللسان يزيد الغضب اتقاداً والسكوت يُطفئ من لهبه.

(٢) ضمير فيها يعود إلى جميع ما تقدّم، أي تذكّر كلّ ذلك واعمل فيه مثل ما رأيتنا نعمل، واحذر التأويل حسب الهوى.

(٣) على متعلقة بقدرة.

(٤) يريد من العذر الواضح العدل، فإنّه عذرٌ لك عند مَن قضيت عليه، وعذرٌ عند الله فيمن أجريت عليه عقوبة أو حرمته من منفعة.

(٥) نهج البلاغة شرح صبحي الصالح ص ٤٢٦.

الفهرس

مقدمة........................ ٥

هذه الدراسة ٧

مقدمة ١١

تمهيد عن القيم ٥١

١/ موقع القيم في الفكر الإسلامي ١٥

٢/ ماذا نعني بالقيم؟ ١٧

٣/ مصدر القيم: ١٨

٤/ أسباب الاختلاف حول القيم ٢٠

٥/ الدور الذي لعبه الإسلام في إطار ارتقاء القيم ... ٢٣

٦/ الإسلام وترتيب القيم........................ ٢٤

٧/ كيف تترتب القيم على ضوء العقل والدين؟ ٢٥

التوحيـد........................ ٢٥

العــدل........................ ٢٧

الحــب ٢٨
الحيــاة..... ٢٩
القيم في حياة الإمام علي عليه السلام ٣١
تمهيد..... ٣١
(أ) الإيمان والتقوى ٣٣
(ب) العدل ٤٧
خطبة علي عليه السلام في بداية حكمه ٤٩
عزل عمّال عثمان..... ٦٠
مفردات العدل ٦١
١/ التزام العدل في العامّة وإنصاف المظلومين ٦٢
٢/ إنصاف المظلومين ٦٩
٣/ الامتناع عن التعدي والبغي ٧١
٤/ الامتناع عن التكبّر..... ٨٧
٥/ الرفق في جمع الحقوق المالية..... ٨٢
(ج) قيمة الحب ٧٨
حبّ علي عليه السلام لأصحابه وللمؤمنين..... ٩٢

حبّه عليه السلام لأسرته ٩٧
تعامله عليه السلام مع أعدائه ١٠٠
عليٌّ عليه السلام والناكثون لبيعته..... ١٠١
سلوك الناكثين..... ١١٣
غدر الناكثين ١١٨
علي والقاسطون..... ١٣٠
جزاء الإساءة بالإحسان ١٣١
(د) قيمة الحياة ١٣٧
وهل للحياة قيمة؟ ١٣٧
خاتمة ١٤٧

سلسلة الفكر الرسالي

إصدارات متنوعة لمركز الفكر الرسالي

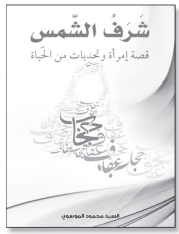

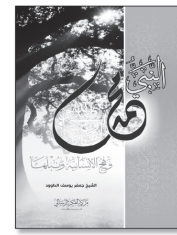

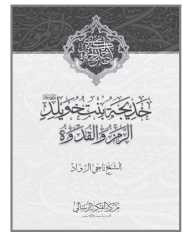

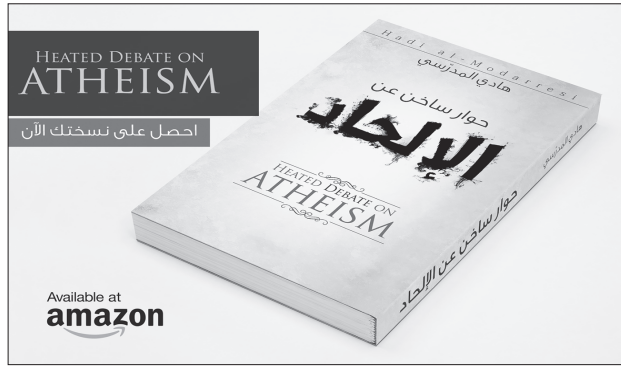

إن معرفة أمير المؤمنين عليه السلام هي أساس لمعرفة الدين وسلوك نهج الدين، وبذلك تصبح هذه المعرفة هي مفترق طرق الجدل حول معرفة الدين وإصابة الحق فيه، أما الوصول إلى تلك المعرفة وذلك الإيمان، فإن له مداخل متعدّدة، والباحث سماحة السيد مكي المأمون، من علماء السودان، في كتابه (الإمام علي عليه السلام في ميزان القيم)، يقدّم لنا بحثاً جليلاً، وهو مفتاح للولوج إلى الإيمان بشخصية أمير المؤمنين عليه السلام، من خلال باب مقياس القيم، تلك القيم الإنسانية والحضارية المودعة في فطرة الإنسان، والتي صدّق بها العقل، وشيّدها الدين.

وقد عرض أربع قيم عليا، يقود إليها العقل، وهي الإيمان بالتوحيد، والعدل الذي ينصف الإنسان، والحب وتجاوز الذات، والحياة في تطلعها نحو الكمال، ثم استعرض حياة أمير المؤمنين عليه السلام بميزان هذه القيم، لتظهر شخصية الإمام عليه السلام أمام الباحث المنصف، بصفاء دون كدر.

www.resali.net
alfekralresali@gmail.com
www.facebook.com/resalinet
resalinet@facebook.com

14
سلسلة الفكر الرسالي